مـــديـــنة المـلـــيون نـــــائـم

خليل إبراهيم أحمد الشريف

الناشر
دار الآفاق العربية

الشريف، خليل ابراهيم أحمد
مدينة المليون نائم
ط ١ ، القاهرة : دار الآفاق العربية ٢٠١٨
١٠٦ ص ، ٢٠ سم

١- القصص العربية .

أ. العنوان ٨١٣

تدمك: ٣ ـ ٤١٤ ـ ٣٤٤ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
رقم الإيداع : ٣٧٣٩ / ٢٠١٨
الطبعة الأولى
١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

جميع الحقوق محفوظة
لدار الآفاق العربية
نشر ـ توزيع ـ طباعة
٥٥ شارع محمود طلعت من ش الطيران
مدينة نصر ـ القاهرة
تليفون : ٢٢٦١٧٣٣٩ -00202 تليفاكس : ٢٢٦١٠١٦٤-00202

Emails: dar.alafk@yahoo.Com
selim.selim10@yahoo.com
daralafak2017@gmail.com
dar.alafk@Gmail.com

التـغـــــيير

تحدث وزير الخدمات الاجتماعية في اجتماعه الأول مع مساعديه ومديري العموم لإدارات الخدمات الاجتماعية لمناطق جمهورية "أطلاكسون"، بلغة رصينة مليئة بالثقة والاعتداد بالنفس، وكان صوته جهوريا متدفقا بطلاقة، بينما لم يحرك أيا من يديه على الرغم أنه كان يتحدث بأقوى العبارات، وأشدها صلافة دون أن يحرك من قالبه الجامد:

"أيها السادة الكرام، علينا جميعا أن نعلم ونعي جيدا أنه منذ هذه اللحظة لم يعد بيننا، ولن يكون بيننا من لا يؤمن بالتغيير .. التغيير مطلب .. بل ضرورة تحتمها حركة الحياة، والعمل أحد جوانب هذه الحركة .. لقد قررت أن يبدأ التغيير في مكتبي هذا، فقد مللت منذ اللحظة الأولى رؤية الأمور على هذا النحو، ستكون طاولة الاجتماع هنا، وسيكون مكتبي هناك، وقاعة الجلوس والاستقبال سنضعها في الزاوية هنا .. (وتأكد الجميع حينها أن يدي الوزير تعمل؛ إذ كان مضطرا عند هذه النقطة من الحديث أن يشير بيديه للأماكن المذكورة ..).

ثم أكمل خطابه: أود أن تنتشر هزة التغيير في جميع الإدارات والمكاتب من اليوم، ولا يؤجل هذا الأمر بتاتا ولا إلى نهاية الأسبوع، ولا يجب الانتظار حتى صدور التعاميم الخاصة به وخلافه من تلك الإجراءات البيروقراطية التي أعتبرها صورة من صور الممانعة للتغيير؛ والتي سأقف لمن يقف ورائها أو يدعمها وقفة حازمة وجادة .. سنبدأ بتغيير مواقع المكاتب، ثم نعمل على تغيير أرضيات الوزارة وإدارات العموم .. نعم الأرضيات .. من المهم جدا تغييرها، إنها مبلطة بالسيراميك؛ والسيراميك هذا غير صحي؛ ويسبب البلادة والكسل حين يمشي الموظفون عليه! بحكم انسيابية ملمسه الزائدة عن الحد،

وسنستبدله بنوع من الفراش السميك الذي يجبر الموظفين على الحركة بطريقة أكثر رصانة وأكثر جدية .. (وهنا أخذت هيئته الجدية تظهر بشكل أكثر بروزاً) بعد ذلك سنعمل على تغيير مواقع الموظفين، خصوصا أولئك الذين يعملون في الطبقة التنفيذية ويواجهون الجمهور، يجب أن نحدث لهم شيء من الحراك العشوائي أو الفوضوي تبعا لنظرية الفوضى الخلاقة، فالموظف الذي يعمل على الشباك الأيمن يتم نقله إلى أقصى اليسار، ومن يعمل في اليسار ينقل إلى أقصى اليمين ودواليك في جميع الطبقات .. بالطبع هذا يشمل المساعدين لدي؛ فسيكون هناك تغيير في الأدوار والمهام، المساعد لشؤون الموظفين سيعمل مساعدا للخدمات العامة والعكس بالعكس .. وأعتقد أن هذا التغيير لن يبقى تغييرا بعد فترة من الزمن، عليكم أن تعلموا أن التغيير سيكون مستمرا ومستديما تبعا لفكرة التنمية المستدامة، لأن التوقف عن التغيير بحد ذاته ممانعة للتغيير وأقولها للمرة الألف لن يقف أمامي أي موظف أو قرار يمانع التغيير .. وشكرا لكم .."

في هذه الأثناء قام الجميع بعد التصفيق والإشادة؛ بالبدء الفوري في التنفيذ، حيث نقلت المكاتب، وعدلت الطاولات، وتم التعاقد مع شركة مقاولات لتغيير أرضية الوزارة كل ثلاثة أشهر؛ باعتبار أن هذا الزمن هو الزمن المناسب و الذي تم الاتفاق عليه ليحول دون ممانعة التغيير، ودون الإخلال في الوقت نفسه بميزانية الوزارة، ثم طال التغيير مواقع الموظفين، واستبدل كل موظف مكانه بالآخر، وقد سبب ذلك إرباكا شديدا في الوزارة، وأثار سخط كثير من العاملين فيها، بينما كانت ردة فعل بعضهم السخرية والضحك على ما آلت إليه الأمور؛ إذ أن هناك دائما في كل مؤسسة موظفين

يفرحون عندما تتهاوى مؤسساتهم وتصدق توقعاتهم لها بالفشل، لكن الجميع .. الجميع دون استثناء، من الموظفين الساخطين أو الساخرين كانوا لا يبدون للوزير ومساعديه سوى فرحتهم وإعجابهم بهذا التغيير، والذي وصفوه بأنه شكل من أشكال الدهاء الإداري والقيادي، كما نظمت إدارة المؤشرات والمقاييس كافة الإحصائيات والأرقام لتثبت للجميع أن هذا التغيير كان سببا ثوريا لينحى سلوك الموظفين منحى إيجابيا لم يسبق له نظير في تاريخ الوزارة، وفرح الجميع بما فيهم الوزير نفسه والذي كان يشيد بنظرياته في اللقاءات التلفزيونية وقدرته على ((التطبيق الملائم للنظريات الملائمة)) كما سماها على حد وصفه.

وكان التغيير لا يتوقف فكل ثلاثة شهور، وهي المدة التي حددتها النظرية بحسب منهجية الوزير، تحتم على رئيس كل قسم تغيير مواقع المكاتب من جهة، وتغيير الأرضية، وتغيير مواقع الموظفين ((ثلاثية التغيير الحتمية)) كما أطلقوا عليها فيما بعد، لكنهم بعد مرور زهاء العامين وجدوا صعوبة بالغة في إيجاد تغيير على هذا النحو، لم تكن الصعوبة جراء الجهد المبذول على النقل والتحميل، ولا جراء الميزانية المقتطعة لتغيير الأرضيات، ولا جراء عدم استقرار الموظفين في عمل محدد ومهام محددة، فكل ذلك قد اعتاد عليه الجميع، واعتبروه من الأجزاء التي تشكل الهامش النظري لأي نظرية تطبق على أرض الواقع، ويجب التعامل معه على أنه شر لا بد منه، وأنه أمر سيتغير مع التغيير المستمر لا محالة، لكن مكمن الصعوبة التي استعصت على رؤساء الأقسام على وجه الخصوص؛ أن تغيير المواقع والمكاتب قارب على استنفاد جميع احتمالات التغيير!! حيث نقلت المكاتب لجميع الزوايا، ومر الموظفون على جميع الأعمال،

بل وصل الحال إلى أنهم ابتكروا طريقة جديدة وهي وضع مكتبين فوق بعضهم البعض ويمارس الموظف عمله في الأعلى!! وفي قسم آخر تم تعليق مكتب موظف المحاسبة بالمروحة!! أما في مكاتب المساعدين والطبقات الإدارية العليا في الوزارة فقد اقترح الوزير وضع مكتب المساعد للشؤون الإدارية والمالية بمواجهة باب المصعد مباشرة، ومكتب المساعد للخدمات العامة في منعطف أحد السلالم المؤدية لمكتب الوزير .. أما مكتب الوزير نفسه فقد انتهى به التغيير حتى أصبح في مواقف السيارات!!

كان هناك حلا دائما لكل شيء من شأنه أن يعوق عملية التغيير، وكانت الوزارة في حركة دائبة ومتغيرة نحو صيرورة الحياة التي لا تتوقف! وفي نهاية المطاف وبعد استنفاد جميع أماكن التغيير التي تخطر على البال والتي لا تخطر على البال وجد الوزير نفسه مجبرا على تصدير **القرار التالي**:

سعادة وكلاء الوزارة المحترمين.....

سعادة مديري العموم ورؤساء الأقسام وجميع العاملين بالوزارة ..

نفيدكم بأن عملية التغيير التي تبنيناها في الفترة الماضية قد حققت نتائج عظيمة ولكم خالص الشكر على تفاعلكم معها ونأمل عودة كل شيء كما كان عليه وذلك لتحقق أهداف التغيير المرجوة ولكم خالص الشكر والتقدير ..

وعاد بعد هذا القرار كل شيء على ما كان عليه .. مكتب الوزير هناك .. ومكتب الوكيل هنا والسكرتارية في مكانها السابق ..

عـــاطل عـــــن الأمـــــل

في خطواته المبعثرة على الرصيف، ومع تلك النسمات التي يصعب تحديد وجهتها المتضاربة، وخلف ظلال البنايات المتراصة بطريقة تؤكد غباء مسئولي البلدية، سار متعثراً بهمومه التي تربض في داخل أعماقه كسلة من النكات السمجة، أفكار مشوشة كإذاعة ريفية بائسة، ليس من جديد على وجه هذا الحيز المعمور بالبحث عن أجوبة قديمة، قطعان من البشر تنتشر بين الأزقة وعلى جنبات الشوارع المتفحمة، تمتد أنفاسها عبر الزمن الراكد بينما تحاول أن تقطع الحبال الجافة الملتفة على أعناقها، إن الأسياد يقبعون دائما في أماكن لا نعرفها، لكنهم يظهرون من وقت لآخر ليرشقوا هذه الأفواج بابتساماتهم المهذبة، وكأن أمرا ما يساعد على التبسم مع هذه النكبات التي رآها تعصف بكل شيء حوله، أي سخف هذا ؟ إن اللصوص الذين يتحدث عنهم التاريخ، ووثقت سيرهم القصص والروايات، غالبا ماكنوا يبحثون عن مطامعهم في الظلام، بعيدا عن الأنظار والأنوار، يسرقون ويتجهون بعد ذلك إلى أبعد مسافة ممكنة، ويحرصون ألا تلتقي أعينهم بعيون الضحايا يوما ما، ولكن ما الذي يفعله هؤلاء؟ إنهم يسرقوننا بينما يرفعون أيديهم لتحيتنا!! بل وفوق هذا يهدوننا ابتسامات جذابة توحي بأن شيئا لم يكن، وأن الحياة يجب أن تمضي على هذا النحو، وأن علينا أن نعتاد على هذا الأمر!.

نظر لهذه الشوارع المكتظة بالناس والبؤس معاً، شجيرات الكافور النحيلة على امتداد النظر، المحلات التي تتوسل بكل شيء حتى تبقى بضائعها صامدة في وجه العهر الاقتصادي الراهن، السيارات المحطمة، والأبنية المتراكبة بطريقة مضحكة، القذارة التي تأخذ طريقها بجوار الأرصفة والمنعطفات الراكدة، حالة عارمة من الفوضى!! كل شيء في هذا الوطن مبعثر، يشعرك

وكأنه يعاني من حرب طاحنة مع قوى خفية، أرواح شريرة تمتد عبر سلسلة الجبال الساحلية الشاهقة، تهبط مع حلول الصباح إذ أنها ليست في حاجة للظلام، بل ترى أنه الوقت المناسب لحبس الرجاء المكبوت، وبداية ساعات العمل في المصنع الذي ينتج المصابين بلوثة الطموح، وواجهة المتجر الذي يبيع علقم الفهم والبحث عن الحقيقة، ليس ثمة ما يقارب هذه الأمة في التردي، هذه الشوارع المتلفعة بثقوب الفساد والنهب، تلك التكايا والأرصفة المدهوكة، جذوع النخل المعفر وأعمدة الإنارة الكئيبة الصامدة بحزن على جنبات طرق الألم، الموجودات العريقة هنا وهناك، إنها تحكي ثورة الشكاية في أرجاء المكان! وتكبت بمضض أعاصير الغضب بين الأزقة المهمشة، وفي بطون الأحياء المغتصبة! كانت الوجوه من حوله كأنها عقبان تائهة! لا مناص من المتاهة التي ترسم خطوطها على جباه الكادحين، هؤلاء الناس لم يعودوا يعيروا اهتماما لأي شيء، حتى لكرامتهم التي سالت عبر ثقوب الصمت الباهت، لقد نجح الاستبداد بتحويلهم إلى أقرب ما تكون عليه البهائم! كخيول العربات التي لا تفهم إلا لغة السوط، ولا ترى إلا ما يراد لها أن تراه، غريب أمر هذا الإنسان، إنه قادر أن يكون ذليلا إلى أقصى حد، كما أنه قادر أن يكون مستبدا باطشا إلى أقصى حد، وبين هذا وذاك يعيش الناس مأساتهم وانحطاطهم، كان يبصق إلى يساره كلما مر بجوار صوره لمسئول وراح يتشعب به التفكير نحو مشكلات أخرى، أنشطة العقل والإنسان تضيق حدودها هنا يوميا وتنحدر بسرعة مفرطة إلى الهاوية ويصل كل مرة إلى نتيجة حاسمة أنه لا سبيل إلى النجاة، وأن الأمور مقبلة إلى ضياع حتمى، لا شيء في مكانه الطبيعي أو الصحيح، ولا شيء يستند إلى قاعدة أو منطق، إن الأمور في حياته من

التداخل والاختلاط والتناقض تصل إلى حد الهزلية العابثة، أي أمة أخرى تمتلك هذا القدر من الثروة ولا تعرف سوى الاستجداء والنفاق والتوسل؟ إن شيء ما فقد توازنه في هذا الحيز من الأرض، وأصبح غير مفهوم وغير ممكن! وإلا كيف يفسر ما يجري حوله وتحت بصره؟ كيف يفسر السادية والجنون والزيف والتسليم الكلي والنفاق والأدمغة المكشوطة المغيبة؟! الفقر والذل والحاجة والتخبط والموت اليومي والاستجداء والصراخ والتناسل والفشل وأخيرا الفساد الشامل ولا أحد يرفع صوته ولا أحد ينادي أو يقول كفى؟ كان في غمره تفكيره الآسن حريص ألا تعود لذاكرته المتصدية بعضاً من الوعود الهائلة التي كان يطلقها القائد الملهم للشعب المنكوب، تلك الجمل التي تخرج من فمه مع رائحة زكية يخيل أنها فقاعات من معطر ملابس باهظ الثمن، بينما يشع من خديه بريق ناعم كسراميك قاعة احتفالات مترامية الأرجاء ولابد أيضا من باقة ورد هولندي فاقع الألوان يزين صدر الطاولة الملمعة . ثم تبدأ تلاوة الوعود المجلجلة على جنبات الشعب المنهك، قائمة طولية من المشاريع التي تحيا في ذهن القائد وحده، بينما أبناؤه وأقرباؤه وزمرتهم وحاشيتهم والكائنات الملتصقة بهم يفكرون بأمرين مهمين حين يستمعون لخطابه؛ الأول: هل القائد يعني ما يقوله؟ والثاني: لو كان يعني ما يقوله؛ هل ستتأثر مخصصاتنا وأملاكنا؟ وبمجرد انقطاع البث المباشر وعودة الموسيقى المنطلقة من أعماق الاستبداد وديكتاتوريات القرون الوسطى، والتي على أنغامها تزف الأخبار اليومية بإيحائها الدائم أن الحياة لا تسير كما ينبغي أن تسير عليه، إلا لأن القائد يتبرع بكرم مفرط ويجود بنفسه ووقته ليقف على تلة الوطن التي صارت أنقاض رماد مطحون تحت قدميه! ينتهي في ذاكرته الخطاب المتلفع

بالتضحية المزمنة لمدخرات الوطن، ويعود القائد مع موسيقى تصويرية رنانة ومحبطة، وبخطوات إغريقية يمضي إلى كرسيه المزركش وكأنه يخترق حوائط الزمن الغابر، باتجاه نقطة الصفر وانعدام النسبية للوجود الإنساني! وما أن يستوي بظهره الضخم على الوسادة القطنية زهرية اللون، ويرفع بكلتا يديه ترهلات جسده المحشور تحت أرتال ملابسه الكثيفة، ويتنحنح بصوت مضطرم ليزيل بعض العوالق الرئاسية من حنجرته المترفة بأرزاق الملايين من البشر، ما أن ينتهي من هذا كله حتى يصطف أمامه مئات من الرجال المسربلين بألبسة لماعة مسدولة بطريقة مبهرة، لها أزرية مذهبة تشع كشمس الصباح الكاريبي المهيب، يقفون بإجلال أمام سطوة حضوره المتفتق بالرهبة، وينتظرون دورهم بشغف مصطنع حتى يسمح لهم بتقبيل يد الملهم الأوحد للوطن، ثم تنطلق شرارة المشهد الدرامي اللانهائي، وتزداد وتيرة الموسيقى القادمة من ظلام الصحراء، من بريق السيوف التي شقت طريقها بعنف على رقاب المعارضين، ويتحول القصر الرئاسي في لحظة فارقة إلى عش كبير لطير السنونو، يقف صامداً بين مختلف أنواع الطيور التي تلتف حوله، وكما تلتقط الدجاجات الصغيرة غذائها من الأرض كان هؤلاء الرجال ينحنون إلى يد القائد المنتفخة و المليئة بالنكف، في صورة آلية سريعة وكأنهم عمال مصنع على خط إنتاج لا يحتمل التوقف أو الخطأ!.

المجـــــــد

ذهب شاب جامح يدعى "ربيع الفاروقي" في بعثة دراسية إلى دولة من دول العالم الأول مدتها ثلاث سنوات لإكمال دراساته العليا في هندسة الانتاج، وبعد مضي عشرة أشهر، ولم تأتي أي أخبار عنه، بدأت أسرته بالقلق مما اضطر والده السفر إليه ..

أفضى بحث "والد ربيع" عن ولده إلى نتيجة بائسة فهو لم يجده في مقر السكن الذي زودهم بعنوانه من قبل، كما لم يجد له أثر في الجامعة التي يدرس فيها، ولم يصل إلى علمه سوى أنه شوهد وهو غارق في الثمالة في حانة شعبية قبل أكثر من شهر!.

ما كان من الأب إلا أن اتجه إلى الملحقية الخاصة بالمبتعثين، وبعد أن أخذ موعداً من سكرتير الرئيس جلس وهو شارد الذهن ينتظر الوقت المزعوم للقاء المسئول ..

- يا سيدي .. إنك بالطبع تتحدث عن شاب آخر!.
- أبداً .. إنه هو .. "ربيع الفاروقي" كما هو مسجل لدينا وقد وجهنا له أكثر من تنبيه واضطررنا مؤخراً وقف الإعانة عنه، وقد حذرنا جميع المبتعثين منه، سأحضر لك صورته للتأكد ..

وكانت لحظات حتى عاد الرئيس بإضباره صفراء محشوة بالأوراق ..

- أليس هذا ابنك ؟ (قالها وهو يمد ورقة تحمل صورة صغيرة).
- بلى .. هذا ربيع .. (أجاب بصوت شارد مذهول).

لم يكن بوسع الأب أن يفهم ما الذي حصل لابنه ولا أن يستوعب كل الشروحات التي قيلت له بعد ذلك فقد كان مشدوها تعلو محياه الحيرة كان يسمع من رئيس الملحقية أن ابنه لم يكن مجرد شاب وقع في مأزق إدمان

الكحول وصحبة فتيات الليل، بل إن الأمر كان يتعدى ذلك، لقد كان يحاول أن ينظم حركة طلابية تتبنى توجهات ماسونية!! لقد حدث ذلك بعد أن أقنعته قارئة فنجان مكسيكية أن مجده المنتظر مرتبط بطريق واحد .. الماسونية!.

يمكن اختصار ما حدث لـ"ربيع الفاروقي" على النحو التالي ..

لقد كان يحمل في داخله طموحاً هائلاً نحو المجد، كان يرغب أن يكرس اسمه كشخص مؤثر على مستوى العالم! لم يكن يقنع بالمكتسبات البسيطة والتي يشاركه فيها الكثير من الناس، أسرة ودودة ومتعاونة، دخل مادي جيد، شهادة مرموقة، حياة خالية من المكدرات، كل هذا لم يكن يعدو أن يكون محطة لرحلة قصيرة بالنسبة إليه .. كان يتميز بشدة الملاحظة، ويا لهذه الصفة التي أخذته إلى أسفل سافلين، إذ ما كاد أن يلاحظ نفسه وهي تزداد عظمة وتطلعاً نحو المجد فور تجرعه كأسين من الفودكا حتى مضى في رحلة مع الكحول انتهت به إلى دار قديمة خصصت للمشردين، ولقد طال به الأمد تائهاً مشرداً لا يغلو على شيء كمثل غلوه في الخمر .. وكان يستبيح ما تبقى له من كرامة من أجل أن يعطف عليه أحد المخمورين الموسرين فيمده بكأس أو كأسين من الشراب ..

ولن نطيل الحديث عن هذه المرحلة من حياته، فقد كانت أبشع ما يمكن أن يصل إليه شاب طموح ترقى في سلم العلوم ثم هوى إلى حظيظ البطالة والتشرد، لكن من المهم أن نذكر أنه عانى الأمرين حينما قبضت عليه السلطات وأودع في السجن فترة تزيد على الشهرين قبل أن يسلم إلى بلده، إذ أنه خالط في سجون المهجرين أشد الناس إجراماً وسفالة، ووجد نفسه مرغماً أن يكون ابن بيئته، وأن يتبنى قانون الغاب في ذلك السجن المريع ..

سنخطو خطوات سريعة إلى الأمام .. فما يهمنا هو ذلك التحول الذي صاحبه عند عودته إلى وطنه، لقد كان ابن قرية صغيرة أهلها بسطاء ومسالمين يشتركون في الهموم ويعرفون بعضهم بعضا وتربطهم علاقات قوية ودائمة، وما أن رجع "ربيع" إلى قريته حتى بلغ إلى علمه أنه صار مضرباً للمثل في سوء الطالع ونحس الحظ، وأنه تحول في نظرهم من إنسان ناجح يشق طريقه نحو المجد إلى رجل نزق الطبع معدوم الضمير ..!.

ولقد حاول مراراً أن يمارس عملاً شريفاً أو يشارك والده في التجارة البسيطة التي كان يديرها في القرية، لكنه كان في كل محاولة يزداد فشلاً وإفلاساً، وكأنها لعنة باتت تطارده في كل مكان حتى كاد أن يفقد ثقته بنفسه، وصار أكثر عزلة من ذي قبل، لقد وجد نفسه مجبراً للعودة لذلك الشعور النرجسي اللذيذ .. العظمة .. المجد .. وها هي الكاسات تدور من جديد، ويرى أنه لا بد صائر إلى النجومية العالمية، وأنه سوف يكون مطارداً بالأضواء والفلاشات، ولن تتوقف الجماهير الغفيرة عن ملاحقته، كان إذا بلغ ذروة النشوة يقف على الكرسي ويتدرب على الدور الذي يرى أن عليه الاستعداد له، فتارة يلهب الأجواء بخطبة رنانة أمام كتائب الموت أولئك الذين ينتظرون إشارة منه ليقدموا أنفسهم قرابين رخيصة على مذبح صيته الحسن، وتارة يقف كفيلسوف إغريقي قديم يتكلم برطانة وجاذبية تلهب الشوق في مسامع مريديه والباحثين عن الحكمة والحقيقة .. وتارة يغني أمام جمهوره الذي لم يكن سوى ثلاثة من السذج أولئك الذين لفظتهم القرية وباتوا يشاركونه في التسكع والإدمان والضياع!.

لكنه ذات ليلة، وفي اللحظة التي لم يعد فيها رفاق الكأس يحفلون لخطبه الرنانة وخزعبلاته عن المجد والتي كانت تؤنسهم وتملأ ليلهم بالضحك

والتهريج لكنها استحالت فيما بعد إلى صمت مطبق، بل كانوا يتأثرون أحياناً بمواعظه الايمانية! بل إنهم في تلك الليلة أجهشوا بالبكاء الحار بينما كان هو يستعد أن يكون نبياً مرسلا فخطب فيهم بآيات ووصايا وتعهد لهم بأن يمدهم بالمدد فور رجوع الوحي إليه ..!! لكنه في صباح تلك الليلة نفسها استيقظ وهو يردد كلمة كان يحلم بها في فترة استغراقه بالنوم .. ((المجد)).. ((المجد)) .. وأخذ صوته يعلو وهو يلعن هذه القرية وأهلها ويؤكد ربما لنفسه -لأنه لم يكن أحداً من رفاقه قد استيقظ بعد- أن مجده يناديه ويعاتبه بأشد عبارات التوبيخ إذ كيف يمضي وقته في هذه القرية التي لا يستطيع حتى الحظ البائس أن يمر منها!! وكان وهو يلم أغراضه ويجمع عدد من كتبه التي تنقل بها حتى في أيام غربته لكنه لم يقرأها ولا في أشد الأوقات فراغا وبلادة، وكان كل ما أصدره من فوضى وإزعاج ليس كافيا لاستيقاظ زملائه السذج غير أن واحدا منهم رفع عن رأسه الغطاء ونظر بعينين مغمضتين ومد ذراعه نحو صديقه وقال بصوت شاحب ((هلا فككت كتفي))!! لكن "ربيع" كان قد خطى بخطواته المترنحة نحو الباب فبدا بجسده الطويل والنحيل يتمايل يمنة ويسرة وكانه جذع شجره تلعب بها الريح كان وجهه شاحبا وعينيه الواسعتين محمرتين وذقنه النابتة بطريقة عشوائية اتصلت بشاربيه النافرين وبعد ان وجد طريقه للخروج صفع الباب بقوة ومضى ..

ومنذ تلك اللحظة كان أن قطع "ربيع" علاقته بكل من في القرية حتى والديه، ولم يعد إلى الشرب مرة أخرى فقد ارتبط بذهنه بعد آخر ليلة شرب فيها أن الخمر صارت تزيد من كراهيته لنفسه وأنه بحاجة ملحة لنفسه في طريقه المراد نحو المجد، وبعد أن استقر في أحد المدن الكبيرة والتي تشتهر بنشاطها التجاري والصناعي أخذ يبحث عن عمل حتى في أشد الأعمال شقاء

وجهداً وعرض كافة خدماته مقابل أن يجد مكانا للعيش ومبلغا يمكنه من سد جوعه وشرب قهوته في صباح كل يوم، ولقد كان الحظ حليفه هذه المرة بل لعله المجد الذي ناداه في ذلك الحلم قد أخذ بيديه وساقه ليس إلى عمل واحد فحسب بل إلى عملين جيدين، حيث وجد نفسه يعمل في محل شهير لتحضير العصائر الطازجة في فترة الصباح وحتى الساعة الثانية بعد الظهر، ثم يبدأ عمله الثاني في مكتب تأجير للسيارات من الساعة الرابعة عصرا وحتى العاشرة مساء وكان المكتب يحوي غرفة خلفية استأذن صاحب العمل في اتخاذها سكنا له وبعد مرور أكثر من أربعة أشهر وهو يقضي يومه بين الزبائن الراغبين في شرب العصير والزبائن الراغبين في اقتناء السيارات لاحظ أن نفسه قد هدأت كثيرا عما كانت عليه من تأجج فيما سبق وشعر أنه استطاع بعد فترة طويلة من الضياع أن يكون فردا من منظومة الكادحين في الأعمال الروتينية والذين يتحولون مع مرور الزمن إلى أشخاص هادئي الطباع فاقدي الإحساس بالزمن نظرتهم للمستقبل نظرة محدودة لا تتعدى التفكير عن المكان الذي سيقضونه في الإجازة القادمة! وهنا شعر أنه أمام التحدي الحقيقي لتحقيق المجد، فلم يكن من الكافي بالنسبة لمجده المنتظر أن ينتشل نفسه من الضياع وحسب، كما ان انخراطه في العمل الروتيني كغيره من الناس لن يجعله يحظى بميزة عن الآخرين، كان التحدي الحقيقي أن يحقق قفزة جديدة، نجاح ملموس وبعد تفكير طويل هداه إلى أن الأعمال التي يعملها قد تكون مجالا جيداً لانطلاقته وبزوغ نجمه، فعمل تحضير العصائر لم يحظى بأفكار تطويرية، وقد ساقه ذلك حتى التقى برئيس المؤسسة التي تمتلك محلات العصائر وطرح عليه فكرة كانت السبيل الاول لترقيه في سلم المجد حيث جعلت من تلك

المؤسسة تحقق مداخيلا تجاوزت الخمسين مليون ريال في ظرف أقل من سنة واحدة! وازدادت فروع المحلات بحيث لم يبقى شارع في مدينة من المدن لا يتضمن لافتة (عصائر الجنة) كانت فكرته بسيطة لكنها استجابت لحاجة حقيقية ساندتها أساليب الدعاية التي روجت لها المؤسسة فكانت صفقة موفقة بكل المقاييس .. لقد حول "ربيع" اهتمام الناس بتقديم هدايا الأعياد وهدايا المناسبات الخاصة من الكعك والحلويات والبسكويت إلى فواكه تصنع كشاكلة تلك الهدايا ولكنها تشكيلة من الفواكه الاستوائية الطازجة وكانت السلة الواحدة تجمع بين شكل الزهور والورود المنمقة وكذلك توفر غذاء طازجا ومفيدا للزبائن .. كانت فكرة العصر في ذلك المجال بلا منازع!.

وما ان جرت الاموال بين يدي "ربيع" وتحسنت أوضاعه الاقتصادية وشق طريقه إلى أعمال حرة متنوعة كل منها كان يشكل عبقرية جديدة في مجاله، ولقد صار رجلا شهيرا بين تجار المدينة وأخذت الصحف ووسائل الإعلام تتهافت لعمل المقابلات معه وقررت مؤسسة نشر لها صيت كبير بين المثقفين أن تطرح سيرته الذاتية كأفضل رجل أعمال استطاع أن يحقق أسرع ثروة للأعوام الثلاثة الأخيرة وكان يجد نفسه محاطا بأضواء الفلاشات في حله وترحاله وكان المتزلفون والمعجبون يلحقون به في كل مجلس يجدونه فيه حتى أنه اضطر إلى أن يتعاقد مع مؤسسة أمنية عريقة في حماية الشخصيات الهامة وزادت تطلعاته يوما بعد يوم ولم يبقى من حلم يخطر له على بال إلا وتحقق دون أدنى مشقة تذكر، وكان يدخل بعض المضاربات بنفسه رغبة منه في تذكر طعم الخسارة التي كانت تملأ أركان حياته فيما مضى، لكنه كان يتفاجأ أنه في كل مضاربة تتضاعف أرباحه، وتقفز مكاسبه وتتخطى توقعات خبراء المستثمرين أنفسهم ورسخ

بين الناس والتجار أن رجل الاقتصاد الأول "ربيع الفاروقي" رجل لا تعرف الخسارة له طريقا أبدا، فكان الناس يتجمعون أمام بيته ويقذفونه بأكياس الأموال ويتوسلون له أن يستثمرها لهم في أي مجال من المجالات التي يضارب بها، وقد كانت الأموال والشيكات تطارده في كل مكان حتى أنه أصيب بمتلازمة رائحة النقود والتي باتت تسبب له إحساساً يدفعه للرغبة في الاستفراغ بمجرد أن تدخل إلى خياشيمه تلك الرائحة الخاصة بالنقود، وقد حصل له ذلك أكثر من مرة كان من بينها ذلك الاجتماع الذي رتب له لعقد صفقة تسويق أسلحة نارية محمولة، كان التجار الأفارقة لا يعرفون طرقا أخرى للدفع غير التسليم النقدي المباشر وفي اللحظة التي فتحوا أمامه حقيبتين بنيتين تمتلئ برزم الدولارات سارعهم بإفراغ معدته ليس على الحقيبتين ولكن على رأس ذلك الأسود الصغير والذي مسح رأسه دون أن تتغير ملامح وجهه وأكمل الصفقة وكأن شيئا لم يحدث!.

ولقد حاول في أكثر من مرة أن يخرق بعض العقود في الصفقات التي لا تمثل له أهمية قصوى لعله يعاقب بالشروط الجزائية المنصوص عليها، وبالتالي يستطيع التأكد أنه لم يصب بلعنة الغنى أو ما شابه ذلك، وكانت الحيرة والخوف تتملكان روحه حين تصل إليه رسائل من تلك الشركات وهي تستجديه أن لا يقطع علاقته التجارية بهم وأنهم على استعداد تام لدفع الشروط الجزائية له حتى وإن كانت العقود تضعه موضع التغريم والمحاسبة! وما كادت السنة تمر والأخرى تليها حتى أصبح لا يحب أن يسأل عن المكاسب التي تحققها مؤسساته ومملكته الاقتصادية، ولم يعد يعنيه من قريب أو بعيد التضخم الذي لم يعد يستطع تفسيره ولا أكبر الاقتصاديين في العالم لثروته من

العملات في البنوك، ثم أنه لم يعد يبالي إذا كان المديرون التنفيذيون لمشاريعه يعملون لخدمة مصالحه الاقتصادية أم لخدمة مصالحهم الخاصة .. وكان يحضر في القيادة الإقليمية المركزية لمشروعاته فيجلس مالا يزيد عن النصف ساعة يقضي أغلبها في الحديث مع النادل الذي يصب له الشاي فإذا بقيت خمس دقائق على خروجه يمر السكرتارية ويوقع عشرات الأوراق التي تنتظره هناك، وإذا رجع إلى قصره عاوده ذلك الشعور الذي بات يتكرر عليه بشكل يومي في الآونة الأخيرة بانه مجرد مادة تمشي على الأرض! وكان أكثر ما يضايقه من كونه مجرد مادة أنه لا يعلم متى وكيف فقد جانبه المعنوي والشعوري؟ ثم ما لبث أن اعتاد على مثل هذا الأمر وأخذ يتأقلم على كونه مادة صرفة وصار يحاول أن يلبي الاحتياجات المادية لهذا الجسد المادي الذي يحتويه .

لم يفكر بالزواج ولا بالأولاد ولا يعرف السبب وراء أنه لا يحفل لعدم وجود امتداد له من الأبناء والورثة ولقد صرح ذات مرة لأحد ضيوفه في حفل افتتاح مصنعه الجديد أنه لا يجد أي أهمية للأبناء طالما أنه يستطيع أن يوفر كل من يقوم على خدمته ورعايته وأضاف أنه أيضا لا يرى أي مشكلة في أن تكون جميع ممتلكاته وثروته لمن يحالفه الحظ من أقاربه الأحياء فهو لا يعطي هذا الموضوع أي وقت من تفكيره كما أنه لا يتذكر المرة الأخيرة التي فكر فيها بوالديه وأسرته، وهو لم يعد يشغله في الفترة الأخيرة سوى رغبته العارمة في التأكد أنه مازال بالإمكان تسميته إنساناً! وقد كان يفحص أحيانا نفسه أمام المرآه ويتأكد انه لم يظهر جديد على جسده المادي يوحي بتطوره إلى شيء آخر لا يعرف كنهه، إنه لم يستطع تفسير هذه الأموال التي تنهال عليه في كل لحظة دون أن تضيف لذاته شيئا حقيقيا يذكر، وكانت غرابة موقفه تتحول مع الوقت

إلى هواجس ولزمات تفكيرية بل إلى أسئلة وجودية في حال شاهد كل من يحيط به من البشر وهم يسعون في لذة و في جهد جهيد لجني أرباح مادية أكثر، كان يلمس ما تحققه المكاسب بالنسبة لهم من رضا وسعادة أو شعور بالأمان في أضعف الحالات، بينما هو تزداد شكوكه في إنسانيته مع كل محاولة فاشلة يقوم بها من أجل أن يحقق خسارة واحدة على الأقل فيما تبقى له من حياته، وقد استقر به الأمر أن يحاول قدر استطاعته أن يعتبر كل مكسب جديد هو خسارة في حد ذاته خسارة أنه لم يحقق الخسارة!! ولعل هذا النمط من التفكير جعله يشعر بشيء من الرضا وتعود إلى مخيلته ذكرى إنسانيته المفقودة، لكن ذلك لم يستمر طويلا فما أن هاتفه المحامي الخاص به ليطلب منه اجتماعا عاجلاً ويخبره فيه أنه وفقا لأحكام قضائية صادرة من المحكمة العليا وكانت طبيعة هذه الأحكام ملزمة ونافذة فإنه الوريث الوحيد لأحد أكبر رجال الأعمال المرموقين في البلاد والذي كان يقدس شخصية "ربيع الفاروقي" ويعده الرجل الوحيد في هذا العالم الذي لم تستطع الاموال ولا بهرجة الثروة أن تشوه تركيبيته البشرية، ما ان سمع من المحامي هذا الخبر حتى قرر قرارا جازماً أن يطلب كأساً من الفودكا المركزة عقبتها كأسا أخرى وكأس ثالثة ولم يطلع الفجر حتى كان قد قضى على زجاجتين كاملتين من الشراب وخرج هائما على وجهه مانعا كل من يعرض عليه خدماته من الخدم والحراس والسائقين أن يقف في طريقه أو يرافقه وانتهى به الأمر وهو يلعب بالحجارة ببجامته المنزلية في أحد حواري المدينة القديمة وكان عدد من العمالة الذين يستعدون في هيئاتهم المليئة بالعناء والشقاء لبداية عمل يومي قاهر ينظرون إليه في حيرة وذهول .. لقد كان "ربيع الفاروقي" متقهقرا تائها على الرغم أنه رجل الاقتصاد الأول الذي لم يعرف الخسارة منذ أمد بعيد!!.

الـــــــوجـــــه

في غرفة ضيقة لا تتسع لأكثر من سرير وكرسي صغير، كان على السرير شخص نائم، وعلى الحائط علقت شاشة تلفزيون وثوب أزرق، كانت الصورة على التلفزيون غير واضحة، لكن ما أن مضت دقائق حتى ظهر وجه على الشاشة، وأخذ يصدر الأوامر على الشخص النائم ..

- أنت .. يا "سمير" .. انهض .. هيا التقط الثوب الأزرق وامض أمامي ..

قام "سمير" متثاقلا ولبس الثوب، وراح ينفذ أوامر الوجه بانصياع تام .. طلب الوجه أن يتبعه إلى غرفة الجلوس المجاورة ..

في الغرفة جلس الوجه مقابلا لـ"سمير" وبدأ يحدثه بشيء من الصرامة:

- تحتاج لمرآة .. نعم مرآة .. لا تحدق إلي بهذه الطريقة الغريبة .. لا أقصد مرآة كالتي في حجرة النوم والتي تعكس ذات التفاصيل التي نراها على وجهك .. تحتاج مرآة لرؤية الأفكار وهي تسير داخل رأسك، وما تخلفه من انطباعات على سحنتك، وكذلك كل محاولاتك البائسة في إخفاء ما يدور بداخلك .. على سبيل المثال؛ كنت تحلم ليلة البارحة بامرأة! امرأة رحلت في الماضي البعيد، وقد شاهدتك وأنت تبحث عن مهرب في ثلاث عمارات، وقد تسلقت الأخيرة من أجل الاختباء، أو ربما من أجل اللحاق بها بطريقة تميزك عن الآخرين، الهروب من أجل اللحاق .. هكذا بدا الأمر عليه ليلة البارحة! لكن على أية حال لسوف نجد حلاً لأحلامك الغريبة وغير المفهومة .. أما الآن فأنت بحاجة لمرآة يجب أن ترى وجهك على النحو الذي أراه ..

عند هذه اللحظة رفع "سمير" رأسه وحاول أن يرى الوجه، لكنه لم يستطع مثل كل المحاولات السابقة أن يحدد ملامح الوجه، وقد أبدى اندهاشا شديداً

لتطور الأمر هذه المرة بوجود جسد للوجه، وارتدائه ثوباً أزرقاً مطابق تماماً للثوب الذي يرتديه!

- هيا اتبعني .. تحرك بسرعة .. (قالها الوجه بصرامة).

وخرجا من المنزل، كان الليل حالكاً، وكل الأشياء في الطريق لا تكاد تظهر، بصيص من النور كان يظهر من عمارة وأخرى .. هذه المرة أخذه بيده ومضى به حتى وصلا مرتفعاً يطل على المدينة .. وبدأ الوجه بالحديث ..

- سأحدثك عن التجربة التي جعلتني أبدو على هذا النحو، وجه بلا ملامح غير أنني احب أن أؤكد لك قبل أن أبدأ حديثي أنه لا يدفعني لذلك شفقة تجاهك، أو أنني أعتبرك صديقاً، أو حتى شخصاً مقرباً .. أنت لا شيء بالنسبة لي، ولكنني أجد نفسي مضطراً لإيضاح عدد من الأمور لك .. لا أعرف بالضبط لماذا علي أن أخبرك ولكن .. لا يهم .. يجب أن تعرف أن الوجه هو أهم أجزاء الإنسان، إنه الممثل الرسمي له، إنك لا تستطيع أن تتواصل مع أي مخلوق إذا ما فقدت وجهك .. لك أن تتخيل معاناة شخص بلا ملامح فضلاً على أن يكون بلا وجه؟! ولكن هناك في مجتمعكم على وجه الخصوص من يمتلكون أكثر من وجه، وهذا بطبيعة الحال أمر مناسب جدا لسنوات ما بعد 5051 م؛ فهو عصر الأوجه المتعددة، وعليك أن تعي هذا جيداً .. لقد رأيتك بالأمس وأن تطارد تلك الفتاة .. يا للغباء إنك تظهر لها وجهك الكئيب، وذلك ما لا تتقبله الفتيات في مثل هذا العصر أيضاً .. وجهك كان بائساً لدرجة لا تطاق، وتلك النظرة التي بادلتك بها ماهي إلا شفقة عليك؛ فالفتيات كثيرا ما يجعلون الرجال يقعون في حبهم بدواعي الشفقة في بداية الأمر؛ ثم متى ما أصبحت الأمور أكثر

جدية ومسؤولية تتحول شفقتهم إلى جبروت لعين .. يجب أن تعرف هذا جيداً ويجب أن تتوقف عن مطاردتها بذات الملامح .. عليك أن تختار وجهاً جديداً لحياتك، فوجهك الحالي مع شديد الاعتذار والأسف لا يواءم وتطلعات العصر الذي تعيش فيه، والفرصة متاحة أمامك كل ما عليك أن تجد المرآة المناسبة .. وهذا ما عليّ أن أبحث عليه من أجلك .. المرآة المناسبة التي من خلالها يمكن أن ترى كل شيء في تقاسيم وجهك ثم تستطيع بعد ذلك اختيار الوجه المناسب ...

عند هذه اللحظة قام الوجه وأمر "سمير" بالتحرك معه إلى وجهة بعيدة، وانطلقا سيرا على الأقدام مسافة طويلة جدا، حتى وصلا إلى كوخ صغير يقع في مكان تحفه الأشجار من كل الجهات، ولا توجد أي منازل بالجوار، عندها توقف الوجه وقال:

- انتظرني هنا سأدخل قبلك .. لحظات وسأعود إليك ..

وبالفعل ماهي إلا لحظات حتى خرج الوجه من الكوخ ونادى على "سمير" للدخول معه .. وفي الداخل كان المنظر مهولاً ومدهشاً كانت المرايا تنتشر في كل أرجاء الكوخ الداخلية .. مرايا صغيرة ومرايا كبيرة .. مرايا مقعرة ومرايا محدبة ... حادة وضخمة .. وتاهت عينا "سمير" مع هذا العدد من المرايا لكن دهشته زادت حينما لا حظ أن هذه المرايا على كثرتها وتعدد أشكالها لا تعكس صورته على الإطلاق!! وكان يفكر هل هو موجود حقيقة أم مجرد روح شفافة ليس لها وجود .. هل هو ميت ؟؟ أم نائم ..؟ هل يحلم ؟ وقطع حبل أفكاره صوت رجل مسن وهو يقول "أهلا بكم .. بالرغم أنني لا أستقبل الزوار في مثل هذا الوقت المتأخر .. ولكن على الرحب والسعة" كان المتحدث

رجل مسن خرج من بين المرايا بعصا وظهر مقوس ولحية طويلة جدا وعدستين ضخمة على عينيه ..

توجه المسن إلى "سمير" وبدأ يحدق فيه بشكل مركز .. ثم قال: "أها .. إذن أنت رجل بائس .. هذا الوجه لن تستطيع العيش به أبداً .. من حقك أن تبتئس.. "

وتقدم الرجل المسن إلى الوجه وراح يكلمه بصوت خافت؛ هنا ضحك الوجه ضحكة عالية وأتبعها بسعال شديد ثم تحدث إلى المسن "ممكن .. كل أفكارك دائما ممكنة .. يالها من نكته هههههه".

اختفى الرجل المسن بين ركام المرايا، وماهي إلا دقائق حتى عاد وبيده مرآه طويلة جدا، وحادة جدا، وشديدة اللمعان وقدمها للوجه وهو يقول:

"خذ دع صاحبك يرى بنفسه "..

كانت ملامح الخوف قد صارت جلية على وجه "سمير"، وما أن قدم له المرآة حتى أخذها وهو يرتعش ووضعها أمام وجهه ..

رأى طفلا صغيرا يبكي في خضوع .. كان الطفل يكبر ويخط له شاربان ثم صار رجلا راشدا .. كانت هيئته محببة للنفوس ثم ما أن التف على صورته ثعبان ضخم له ألوان كثيرة ومتداخلة.. ثم بدا وجهه شاحبا كوجه الموتى، واستبدل مكان الشاربان شعر قليل، وذقن كثيفة.. لقد صار شيخاً هرماً توحي هيئته بالاتكالية والعجز .. بكى "سمير" بكاء مراً وسقط على الأرض .. قام الوجه بمواساته وأخبره أن كل شيء قابل للتعديل وأنه لا يزال لديه متسع من الوقت لتغيير الأمور الأكثر سوءاً على حد وصفه ..

ولم يظهر عجوز المرايا بعد ذلك على الإطلاق ..

مـوظف الإرشيـــف

بلغ إلى مسمع مدير إدارة مبيعات التذاكر الجوية في المصلحة الوطنية للطيران في مدينة (بيروقراط) صوت جلبة في إدارته الصغيرة ذات المبنى القديم والمتهالك .. وما كاد أن يقوم من مكتبه – و الذي من النادر جدا أن يتركه أثناء فترة الدوام – ليطلع على مصدر هذه الجلبة والضوضاء غير أن سكرتيره كان قد فتح الباب ودخل وهو يلهث **في حالة من الفزع وقال:**

(سيدي .. لقد حلت لعنة على أحد موظفي الإدارة .. تعال وانظر لموظف التدقيق في الأرشيف)..

مضى مسرع الخطى خلف السكرتير الذي كان يجر جسمه الممتلئ بين الممرات، فقد كان قصير القامة، وصاحب بطن كبير جدا لا يليق بمن يعمل كسكرتير، هبطا إلى الطابق الأرضي، ثم إلى الدور تحت الأرضي حيث يوجد الأرشيف ..

في الأرشيف الغبار أصبح أكثر ركودا نتيجة اختناق الهواء، وانعدام وسائل التنظيف، وجدا صعوبة في تخطي الممرات الضيقة ومزاحمة عدد من الموظفين الذين كانوا قد سمعوا بالحادثة جاءوا يسارعون الخطى لمشاهدة كل شيء عن كثب.

شعر المدير بالاختناق لم يكن قد نزل للأرشيف منذ ثمانية سنوات مضت، فتح الياقة عن عنقه وأخذ نفسا عميقا .. **ثم صاح في الجميع:**

- ماذا هناك .. لماذا كل هذه الفوضى ؟.

وجم الجميع عن الرد .. كانت وجوههم ممتلئة بالدهشة والحيرة ..

تحدث السكرتير بلهجة مختنقة:

- موظف التدقيق .. لقد طاله شيء غريب ..

- ما الذي حدث له .. قالها المدير وهو يزيح عدد من المتجمهرين أمام المكتب الأخير والذي يعمل به موظف التدقيق .. وما أن وقعت عيناه عليه حتى صرخ وهو فاغرا فاه:

- يا إله العالمين .. رحمتك!!

كان موظف التدقيق رجلاً مسنا مخلصا في عمله منذ أن باشره منذ أكثر من 37 عاما في ذات المكان، وذات المهمة التي لم تتغير ولم تتبدل حتى أنه تولد لديه قناعة مؤكدة أنه سيفارق الحياة يوما ما وهو يصادق على أوراق التذاكر المسترجعة ..

لقد كان جالسا على الارض بطريقة بائسة، ويبدو أنه مضى زمنا طويلا حتى بلغ محياه هذا الحزن الرهيب، وعلى القدر الذي كان العاملين في الإدارة يشعرون أن مأساة هذا الرجل تزداد في كل يوم تتكرر فيه نفس المهام التي يقوم بها منذ أكثر 37 عاما؛ لكن أمرا لم يكن متوقعا ولم يخطر على بال أي ممن عمل في هذه الإدارة، ولا من المراجعين لها عبر سنواتها الطوال؛ أنهم سيباشرون عملهم في صباح يوم جديد ليجدوا موظف التدقيق وقد نبت على ظهره صدفة ضخمة شبيه بصدفة السلحفاة!!.

كان أمرا مهيبا ومفجعا .. وكان أكثر ما يشغل ذهن مدير الإدارة في تلك اللحظة كيف سيتلقى العالم أن إنسانا من لحم ودم قد نبتت على ظهرة صدفة خضراء ضخمة؟؟ وهل سيكون مسؤولا كرئيس مباشر لهذا الكائن الغريب عن بزوغ هذه الصدفة!؟.

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحا، ولقد دار نقاشا حادا بين المدير والموظفين والمتجمهرين في الممرات وحول المكتب .. حيث كان المتفرجون

الأقل طيشا قد أخذوا يدلون بكل ألوان التصورات والتخمينات بشأن مستقبل هذا الموظف .. فكان من رأي أكثرهم بساطة وسذاجة أن ينصبوه رئيسا للأرشيف؛ إذ أن تهميشه كل هذه السنوات من وجهة نظرهم سبب لما جرى له .. أما الآخرون الأكثر تعقلا فقالوا إنه كان من الضروري إحالته من فترة قديمة للتقاعد براتب كامل فكيف تتعامل هذه المؤسسات مع الإنسان .. إنها تعاملهم كالحيوانات وهذا ما حصل له بالفعل .. ورغم كثرة النقاشات والجدل، لكن أحدا لم يجرؤ على محادثة موظف التدقيق، وربما كان ذلك سببه يعود إلى أن النظرة التي كانت ظاهرة على عينية، والتي كانت توحي بأنه لا يجب إطلاقا سؤاله عن الذي حدث، وربما كانوا يخشون أن أي اجتهاد أو تصرف منهم من محادثة أو إسعاف أو ملاطفة قد تقود إلى ما لا يحمد عقباه .. فمن كان يتوقع منهم أصلا أن يرى إنسانا على ظهره صدفة ؟.

وما أن مضت أقل من ساعتين على الحدث حتى تواجدت أعداد مهولة من الناس والمؤسسات الخدمية والإعلاميين ومراقبين وأطباء وعلماء نفس، حتى علماء الدين طلبهم العامة حتى يتأكدوا إذا كان هذا الأمر دليلا على قرب يوم القيامة .. لكن غالبية من حضر كانوا يتفقون على أنه من المذهل ذلك التناسق العجيب الذي بدت عليه الصدفة على ظهر الرجل .. حتى أن أحد علماء البرمجة العصبية كان يقول وهو خارج من الأرشيف ((لم أعد أستطيع ان أفهم لماذا لا يكون للإنسان صدفة خضراء بهذا الجمال على ظهره لتحميه))!!.

لم ينتهي ذلك الحدث المهيب في إدارة مبيعات التذاكر لقد كان له تداعيات عظيمة وكبيرة في البلد، ولقد عقدت جلسات استثنائية وطارئة لمجلس البرلمان، وصيغت تشريعات صارمة وحازمة لحماية موظفي الأرشيف

والتدقيق على وجه الخصوص في الإدارات العامة والخاصة، بحيث يكون لهم حق اتخاذ عدد من الإجراءات الطبية والسلامة المهنية التي تحول دون تكون صدفات خضراء ضخمة على ظهورهم .. وقد اجتمع مجلس الشعب لدراسة وضع موظف التدقيق المنكوب، وخرج الجميع بتوصية ملزمة التنفيذ؛ وهي توفير محمية طبيعية خاصة للموظف يقضي فيها ما تبقى من عمره!.

صـــوت مـــن الـــداخـل

لا تتراجع .. لا تتراجع أبداً، حتى وإن كنت تشعر بالوحدة والشغف، وإن كنت تظن أنك غير قادر على أن تجد فتاة مثلها، كل هذا وهم، حتى وإن كان هذا يمثل الحقيقة، فهذه الحقيقة موجعة، كيف تسمح لنفسك أن تحب فتاة لا يوجد مثيل لها في نظرك ؟ أنت تلقي بنفسك للجحيم!.

كل النساء يذهبن، مهما طالت العلاقة، ولو بلغ الحب ما بلغ، في النهاية يذهبن، فرررر، يطرن مع الرياح!.

النساء .. آآه .. هذا السر العجيب، المخلوق الذي يسعدك ويشقيك، يثير فيك النشوة والاشمئزاز، يفجر الشوق، ويورث الملل!.

لا عليك .. الليالي قادرة أن تحسم الموقف، ستنساها .. ستجلب لك الليالي فتاة أخرى .

لكن .. هل تعتقد أن هناك أخرى؟ هل هناك من يشبهها بين النساء ؟.

لا تضيع الفرصة، لا تضيعها أبدا .. دعك من منطقيتك المزعجة أحياناً، كل العلاقات دائما للزوال، حسنا نعرف ذلك .. ما المشكلة؟ المهم علاقة مع فتاة ليس لها مثيل كما تؤكد أنت دائما، ستنسى معها كل مظاهر الحياة الجدية الروتينية .. العمل، الدراسة، السفر، الأبناء .. التعب والتعب والتعب ..

أنت في حاجة ماسة لها، ألا تشعر .. ألا تحس بها وأنت تقرأ كلماتها، تشعر بصوتها من خلال تلك الأحرف، الصوت الدافئ يتخلل روحك، يداعب قلبك، يسمح للدم أن يجري بسرعة أكبر!!.

تحبها ؟ .. اعترف بلا مرواغة! أما كيف أحببتها فهذه قصة أخرى .. يقولون أن لكل لص نهاية تعيسة، هل تعتقد أن نهايتك تعيسة؟ يبدو أنها نهايتك يا عزيزي .. ستعذب قلبك، ستحرق أحشائك، ستعيش باقي عمرك وأنت تفكر .. هل سأجد فتاة مثلها ؟؟.

احلم .. استمر في الحلم، أنت أبله، حتى أنك لا تستمتع بالأحلام كما يفعل الآخرون، تنتقل من حلم إلى آخر بسرعة، تتخبط كقط أعرج!.

آآآخ .. لا يستطيع الرجل أن يفكر دون أن تكون المرأة في حياته، يختل عقله، يشغل عقله بالتفكير في أمور صغيرة وتافهة!.

الرجل .. الرجل ياعزيزي خائن بطبعه، يتلذذ بالخيانة، يشعر بنشوة سريعة، يحس بالانتصار، ممن ؟ أنت لا تعلم، أو أنك تعلم و لكنك تتغابى .. تستهبل!.

الرجل يخون ولو لم يكن في حياته انسان يخونه، حتى وإن كان أعزب، مقطوع من شجرة، مغترب، هذه حقيقة، وهي تزعج الرجال دائما، وتزعجني أنا شخصيا، ولكنها تظل الحقيقة، وعلى النساء أن يعينها جيدا، وأن يتعلمنها في المدارس، في مقررات الوطنية أو التاريخ ((أن الرجل خاائن بطبعه))!!.

هل أنت خائن ؟؟ اعترف، تحدث .. انطق .. قل كلمة، كلمة واحدة، الصمت يشعر الآخرين أنك قط .. قط مقطوع اللسان!.

تود الاعتذار!؟، ما هو عذرك ؟ أنك رومانسي، كاتب، عازف،زير نساء، قط أعرج .. ماذا بالضبط؟ في النهاية أنت رجل، أليس هذا ما يفعله الرجال دائما، يخونون، ثم ينامون في الليل! .. أنت رجل شرقي، يجب أن تفتل شواربك، أن تلمعها بصبغة سوداء، أن تتعجرف، تعربد، تبصق في كل مكان، تضع ذيل طاووس، في النهاية أنت رجل، هذا بحد ذاته كافي، المهم لا تعتذر وتقول أنك لن تجد فتاة مثلها أبدا؟؟ هذا عذر لا يليق بالرجال، إنه عذر يليق بالنساء!.

لماذا تنظر إلى الجدار هكذا؟ .. هل لا زلت تفكر بها؟ من الواضح أنك لا تقتنع.

أنا أعرف نظرتك هذه، أنت تخطط لشيء ما ..

هل لا زلت تتذكر وهي تقول "ياسيدي"؟ آآه .. إنها تنظر إليك كسيد، كأمير ملثم، كرجل فاتن يجلس على عرش، إنك تملأ قلبها، أنت رجل أحلامها، هي تقول ذلك بصراحة، هي لا تخفي مشاعرها تجاهك، هي التي بدأتك البوح، صحيح أنك أخفيت عنها الكثير من مشاعرك، لكنك بمجرد ما استجبت إليها بوضوح؛ أسرعت إليك مهرولة، طائرة، لتحتضن قلبها، لتحملها بين ذراعيك، لتنسى على صدرك كل الأشياء المملة في حياتها، لقد كانت تراقبك كقناص، تقف بهدوء المحنطين حين تأتي أنت، وتمر من أمامها كالطاووس، بخطواتك المهيبة، تتبختر، ترفع ذيلك لأعلى درجة ممكنة!! تنفش ريشك في أرجاء المكان، ولكنها تنتظر الفرصة المناسبة حتى تقذفك بسهم، سهم لين كالمطاط، يستقر بأحشائك دون أن تتألم، تنظر وتضحك، وتتبادلان الضحك .. ثم تعود أنت إلى قط، قط أعرج، وربما أعور أيضا!!.

ماذا قررت؟ .. أن تحب؟ أن تشغل ذهنك بإمرأة؟ أن ترهق قلبك بتجربة جديدة؟ أن تقيد رجليك بشرك؟ أن تنام بعد أن تسمع صوتها أو تقرأ رسائلها؟ أن تتحدث مع الناس وأنت تفكر إن كانت تربطها علاقة برجل غيرك؟ أن تمارس الجنس بينما تتخيلها بين ذراعيك؟ هل ترغب لهذا كله أن يعود يارجل؟.

هل ترغب أن تحب مرة أخرى ؟.

ألم تقطع العهد ألا تفكر بعلاقة من جديد؟ ألم تلعن الحب عشرات المرات من قبل؟ ألم تحذر الآخرين من خطر الاستسلام لامرأة؟

تذكر أنك تقول، أنه لا يوجد فتاة مثلها، أنت واثق من ذلك كثقتك بهذا الهواء الذي تستنشقه الآن، أم أنك لم تعد تثق في شيء ..؟؟.

كيف سيكون هذا الحب يا عزيزي .. تكلم أيها الطاووس، أقصد القط .. القط الأعرج الأعور!.

الحب، الحب ما هو الحب يا عزيزي، الحب بطولة، مجرد أن تتبادل الحب مع امرأة، فقد حققتما بطولة، ولكن بطولة هادئة، قد لا يسجلها التاريخ، ولا تتناقلها وسائل الاعلام، ولكنها تظل بطولة يمارسها الانسان كي يثبت لإمكاناته العاطفية أنها تعمل بشكل جيد، أنها لم تفقد صلاحيتها بعد.

دعها تمزق قلبك، تركض عليه، تغرس أزهارها البيضاء بقسوة، هذا الحسن الذي يتوشحها، والنور الذي يشع من قلبها .. يلهب النار في صدرك، ولا تنطفئ أبدا..

هل يمكن لامرأة أن تكون شديدة الروعة إلى هذه الدرجة؟ وهل يستطيع انسان آخر، أي انسان أن يكون مثلها؟؟.

هاه بماذا تفكر؟.....

الأرملـــــة البلـهـــــاء

على امتداد الطرق المحيطة بمحافظة ((الحرجة)) الصغيرة، كان بالإمكان مشاهدة القرويين ترافقهم زوجاتهم وهم يمشون على الطريق باتجاه سوق (الاثنين) الأسبوعي، يخطو الرجال متثاقلين، ينوؤون بأحمال غير مرئية، وتندفع مقدمة أجسادهم بشكل سريع إلى الأمام مع كل حركة تؤديها سيقانهم الطويلة، ويبدون مشوهين بسبب الأعمال المجهدة التي يقومون بها عادة والتي تقض ظهورهم مجسدة بوضوح حياة القرويين الجادة والمليئة بالكد والفلاحة.

قد يرى أحدهم يجر ماعزا بينما زوجته تحمل على ظهرها شوالا ضخما من القمح .. وثمة رجال يحملون سلالا كبيرة تظهر منها رؤوس الدجاج ..

في ساحة سوق الاثنين بالحرجة تصطف المحلات والبضائع على شكل حرف "u "، وتنطلق فيها صرخات هنا وهناك للباعة والمتجولين؛ ناهيك عن هرج ومرج لجموع الحيوانات المعروضة للبيع، أو تلك التي يمتطيها أصحابها في أرجاء السوق .. أصوات حادة تجعل الضوضاء متواصلة، وبين حين وآخر ترتفع قهقهة صاخبة منطلقة من روح مرحة، أما الروائح فحدث ولا حرج إذ يصعب التفريق بين روائح البخور والعود المعروضة للبيع وبين رائحة روث الأبقار والاغنام والحليب والسمن!.

وكانت السيدة الأرملة "وضحى" تجوب السوق بجسمها الضخم وسحنتها الباردة، وتتنقل من محل لآخر وهي تنوي الشراء وعدم الشراء في الوقت نفسه، وكل ما يهمها في تلك الأثناء أن تطلع أولا على كل ما هو موجود بالسوق في هذا الأسبوع، وعلى الرغم أن البضائع هي ذاتها تتكرر في كل أسبوع، إلا أنه قد ترسخت لديها قناعة غريبة أنه يجب على المتسوق أن يجول السوق بأكمله قبل أن يهم بشراء أي شيء يحتاج إلى شراءه!.

وسرعان ما تاهت وسط الضوضاء وحركة الناس المنشغلين ببيع الخناجر والسيوف وهم يتناقشون في مسألة شرائها مترددين خشية أن يخدعوا في جودتها أو مناسبة أسعارها، وبينما كانت السيدة "وضحى" تنحني عند بعض الملابس والأقمشة المعروضة، ثم ما أن رفعت قامتها وتقدمت خطوات قليلة للأمام حتى صدرت من مؤخرتها ريح مصحوبة بصوت مقزز وطويل لم تستطع من منعه! إذ كانت تعاني من أمعائها التي لا تتردد في إفراغ ما بها من ريح دون أن تسيطر عليها! فتغشاها في تلك اللحظة خوف رهيب، حيث تعد حادثة مثل هذه كفيلة بأن تكون حديث المجالس في كل بيت من بيوت القرية، فالقرويين بطبيعتهم يحبون القيل والقال، ويدفعهم الضجر والملل من الأعمال الشاقة في الفلاحة وغيرها للبحث عن أي قصة جديدة تكون موضوعا للتندر والضحك، راحت تتلفت عن يمينها وعن شمالها، وأمامها وخلفها، فلم تلاحظ أن أحدا انتبه لذلك الصوت .. وفيما هي تستعد لمغادرة السوق، إذ أن هذه الحادثة جعلتها تتشاءم وتحاول أن تنزوي عن الأنظار لكنها لمحت السيد "هباش" صانع السروج يتطلع إليها بنظرات ساخرة ..!! وكانت قد اختلفت معه مرة في مناقشة أمر ما، ومنذ ذلك اليوم لم تعد تلقي عليه التحية أو تتفحص بضاعته .. توقفت قليلا وحدثت نفسها ((يا إلهي .. يبدو أنه سمع الصوت وسوف يخبر كل من في القرية .. ما العمل الآن؟؟)) وبعد تفكير وحيرة وتروي قررت الذهاب إليه واستجدائه بأن يكتم الأمر وأن لا يخبر أحدا بما حصل ..

- يا سيد "هباش" عليك السلام

- وعليكم السلام ورحمة الله (قالها بنبرة ساخرة)

- يا سيد "هباش" أستحلفك بالله أن تسترني وأن تكتم ما سمعت، وكأنك لم تسمعه ..
- عن ماذا تتحدثين .. أكتم ماذا ؟ (قالها باستغراب ودهشة).
- يا سيد "هباش" لا تتظاهر بأنك لم تسمع الريح الذي أصدرته قبل قليل .. إنني أعاني من تلبكات في الأمعاء منذ فترة طويلة .. يا سيد "هباش" أتوسل إليك لا تجعلني أضحوكة أهل القرية ..
- عن أي شيء تتكلمين يا امرأة؟؟ أنا لم أسمع شيء؛ ولا علاقة لي بأمعائك وضريطك.. اذهبي ولا تفضحي نفسك فأنا مشغول كما ترين ..
- احلف لي بالله أنك لن تقول لأحد بما حدثتك به الآن.
- لا حول ولا قوة إلا بالله .. أي صباح هذا الذي أتى بك؟؟ أقسم لك بالله أنني لن أتحدث عن أي موضوع يخص ضرطتك أو غيره ..
- ما أكرم أخلاقك يا سيد "هباش" عليك أمان الله، سوف أذهب ولن أزعجك أبدا ما حييت .. إلى اللقاء أيها السيد النبيل الكريم ..

وما أن تقدمت بخطواتها نحو منزلها وكانت تلعن نفسها، وتندب حظها، وتفكر في غباءها الذي جعلها تفضح نفسها عند صانع السروج، ولكنها كانت في حيرة فنظراته الساخرة ماذا كان سببها؟؟ وما الذي يلوي من ورائها؟ وراحت مخاوفها تتجدد داخل نفسها، وأخذتها الظنون إلى أن السيد "هباش" ما هو إلا رجل دنيء يريد أن ينتقم منها ويستمتع بقلقها نتيجة الخلاف الذي دار بينهما فيما مضى، وهو بالتأكيد سوف يخبر الجميع، أو على الأقل بائعة البيض التي بجواره وهي امرأة تكرهها وتحقد عليها ((يا إله العالمين .. كيف سأعيش بين الناس هنا .. سيلقبونني بالضراطة .. أو ضراطة السوق .. من يعلم)) قالتها وهي تهرول بخطواتها، ومن جديد نحو السيد "هباش" ..

- يا سيد "هباش" .. إنك رجل لديك بنات وزوجة، وأنت بالتأكيد لا ترضى لإحداهن أن يعيرونها الناس بالألفاظ السيئة .. أرجوك انس الخلاف الذي دار بيننا من قبل، وإنني على استعداد كامل للاعتذار لك أمام الناس .. أرجوك أقبل يديك .. وكادت أن تنهار على يديه لولا أنه منعها بحركة قوية وقال مشمئزا:

- يا سيدة هل جننت؟؟ أقسم لك بالله للمرة الثانية لم أحدث أحدا عنك بسوء أو بغير سوء .. ألا تفهمين ؟.

- جزاك الله خيرا يا سيدي الكريم النبيل .. هذا هو العشم بأمثالك من النبلاء ..

ومضت في طريقها مطمئنة وقد تنفست الصعداء أن هذا الأمر قد انتهى، وأصبح طي الكتمان، وفي منزلها أخذت تفكر كيف تجد علاجا لمشكلة أمعائها المنتفخة بالغازات دائما، وكيف عليها أن تحذر الوقوع في مثل هذا الحرج الذي باغتها في السوق بشكل مفاجئ، وفي غمرة تفكيرها تذكرت نظرات البائعة التي بجوار صانع السروج وكيف رمقتها بعينيها بنظرات غريبة .. ((لاشك أنها عرفت بالأمر! .. يا لصانع السروج النذل ..)) وحملت نفسها ومضت من جديد للسيد "هباش" ..

- سيد "هباش" .. هل تعلم مقدار ما تكنه لي هذه المرأة التي بجوار محلك من الحقد؟ هل أفصحت لها بشيء ولو بالتلميح مثلا؟؟.

ما كان من صانع السروج في تلك اللحظة إلا أن رمى ما بين يديه من الأدوات، وقام إلى السيدة الأرملة وأخذ بيدها

ثم توجه لمحل المرأة بائعة البيض والدجاج وقال لها بصوت جهوري:

- يا سيدتي الكريمة أستحلفك بالله العظيم .. هل أخبرتك أن هذه الأرملة المسكينة قد ضرطت قبل قليل وهي تتجول في السوق ؟.

- لا والله لم تخبرني بهذا .. ((أجابت والدهشة تعلو محياها)).

ثم طاف بالأرملة بيدها على جميع المحلات وهو يكرر ذات السؤال ويتلقى ذات الإجابة وبعد أن انتهى من المحل الأخير خاطب السيدة في هدوء:

- هل لك أن تصدقين الآن أنني لم أخبر أحدا بما حصل لك؟؟.

- أيها السيد النبيل الأصيل .. كم أنت على قدر من الخلق والشهامة أشكرك سيدي أشكرك .. إنني جد محرجة منك إذ جعلت قسمك لي مكان الشك والشبهة .. اقبلي اعتذاري يا سيدي النبيل ..

ثم ذهبت إلى منزلها هذه المرة وهي في تمام الراحة والاطمئنان أن شيئا لن يحدث مما كانت تخاف منه!!.

غـــــرفـة الإفـــــاقـة

الصوت بعيد جدا .. (خلاص الحمدلله .. خلاص..) من المتحدث؟ الصوت بعيد جدا .. نعامة تتحدث، هذا أمر مستحيل؟! من هذه الطفلة الصغيرة، أوه تلعب بالحبل بينما أبويها يتشاجران كالعادة .. واحد .. اثنان .. ثلاثة .. لازالت النعامة تتحدث؟! الأحلام جميلة حينما تكون فترة اليقظة لكن الأمور تسوء حينما تشعر أنك غير مدرك بالمكان والزمان .. أشعر أنني مراهقة تعود من مدرستها إلى البيت في خطى متكاسلة تحمل على كتفها الواجبات والذكريات وهمسات خاصة ليس لأحد أن يتطلع إليها .. أريد أن أصرخ بصوت عالي ولكنني لا أستطيع أن أخرج حتى الهواء من فمي .. ما أثقل البرد هنا أووه ما هذه المزحة الثقيلة من وضعني وسط هذا السوق الشعبي ورحل؟! هناك زعيم يصرخ "كل الطرق تؤدي إلى روما" زعيم تبدو على ملامح وجهه الانتصار والجبروت، والشعب يحتفل به أيما احتفال لكنه يعود بعد خطابه المزلزل إلى مكتبه الضخم وبجواره قطته الضخمة البيضاء بشعرها الكثيف ويمضي في ساعات من الشرود والتأمل بينما يمسح بأصابعه المجعدة على شعر القطة .. النعامة بدأت تصغر قليلا لكنني لا أفهم ما الذي تقوله؟ يبدو أنها تطلب مني شيء لم أستطع تحديده! "تعالي بقربي يا ابنتي" هل هذا صوت أمي ؟! لا .. إنه صوت جدتي "سأعلمك كيف تصنعين دميتك الصغيرة بنفسك" آآه جدتي هل يعقل أنت هنا؟ ماذا يدور هنا بالضبط لماذا يتحرك السقف أمامي بهذه السرعة بينما أنا متوقفة عن الحركة؟! ياحمداان .. ياحمداان .. ولكن من حمدان هذا الذي أناديه ؟! ربما أنا أقصد أحمد زوجي .. نعم تركني وذهب كعادته؟! لماذا تطاردني هذه النعامة بعينيها الواسعتين ولا زالت تتكلم بل وتبتسم أيضا .. أنا أشعر ببرد شديد لماذا يتركونني تحت أشعة

الشمس هذه .. الإضاءة شديدة جدا هنا .. لا أستطيع إغماض عيني .. آآه ما هذا الألم الذي يدب في أطرافي؟ نعم .. ماذا تقولين .. أريد زوجي أحمد .. أريده الآن، لقد تركتوني من قبل أتذكرون أيها الأوغاد تركتموني عند شاطئ البحر .. كانت أمي تقول لي أننا وجدناك بجوار برميل زبالة .. هل صحيح وجدتموني بجوار برميل الزبالة .. أيها الأنذال عشرون عاما لتخبروني بهذه الحقيقة القاتلة .. برميل زبالة أيها المنحطين .. أنتم السبب وراء معاناتي وأعدكم وعدا قاطعا أنني سوف أقتلكم جميعا .. وستكون هذه النعامة أول من أقطع رقبتها الطويلة البلهاء .. تضحكون .. يجب أن تبكوا إنه ينتظركم عقاب أليم .. سوف ترون أيها المشردون، آآه .. آآه .. أريد أن أناااام ..

وعندما خلدت إلى النوم .. ودع أحمد والدة زوجته وهو يضحك ملئ شدقيه وقال لها "سأذهب لرؤية الطفل" إلى اللقاء ..

هـــارب إلـــى القمـــر

أنا بعيد جدا، من عيني تنطلق شرارة حزن عظيم وسذاجة تبحث عن النسيان، في مقدمة جمجمتي تظهر آثار لكدمة صغيرة لا أتذكر أسبابها، لا أرى شيئا ذا بال حولي هنا، لكم أود أن أصبح نهراً جارياً شديد الصفاء يستقر في وسط هذا القمر، وأتمنى لو يأتي مجموعة من التعساء فيعيشوا حولي؛ حول هذا النهر ويصطادوا من أسماكي الملونة!.

عند استيقاظي هذا المساء، لم أجد ما أفعله على الأرض، كل الأعمال متكررة، وأحيانا غير مفهومة، وفي غالب الأحيان مفرغة من مضمونها، كمية المجاملات تكاد تجعل الناس ينزلقون إلى التهريج! كما أنني لا حظت أمرا غير جديد، لا حظت أنني جاهلا للدرجة التي امتلكت معها قدرا كافيا من القناعة بأن الأشياء يمكن فهمها بصورتها الظاهرة، لكن حركة انسيابية لسائل لزج انسل داخل أوردتي، كانت كفيلة بأن تجعل كل شيء مختلف إلى درجة النقيض، لست معنيا بخطوط الطول والعرض التي تفرضها عليكم خريطة الأرض، فأنا هنا أسبح بعيدا في مدار أهلليجي، وربما تحررت في لحظة قريبة جدا من الأبعاد الأربعة! حتى أكون النموذج الإنساني الفريد، الذي شكل الحرية بكل مقتضياتها ومفاهيمها المتلاطمة في لحظة تاريخية أبدية، عفوا .. لن أقول تاريخية لأن التحرر من الأبعاد الأربعة يقتضي سقوط التاريخ من باب أولى!.

إذن، أنا حر الآن، وسوف أعيش هذه اللحظة بكل تجلياتها، وبالتالي علي أن أقول بصوت يقترب إلى مسامعكم، بصوت لا يكتفي بالثقة ورباطة الجأش، إنما يصل إلى مرتبة التحدي والعدوان "سحقا لكم"!.

كنتم دمويين ولازلتم، غير أنكم الآن لا تمثلون أي لون وشكل عبر هذه المسافة عن الأرض، ولقد أثار دهشتي أن مسافة صغيرة عن الأرض، مسافة

لا تقدر بشيء أمام المسافات التي أراها في هذا الكون الشاسع، تلاشت معها عظمتكم الواهمة، وطارت أدراج الرياح قدراتكم المزعومة!.

إن زرقة البحار، وسمرة الجبال، وصفرة الصحراء، وخضرة السهول كانت أعلى منكم صوتا عبر أثير الفضاء الواسع، وأنتم ليس أكثر من كائنات غير مرئية بالعين المجردة تنتشر تحت سطح هذا كله.

هناك إشارات هائلة يرسلها دماغي الآن إلى مكان غير محدد بعد، ولست سوى سفير للنوايا الحرة، قابع تحت لعنة كانت أو انفلات زمني، أو فوضى لم تحسب حساب كائن لا تحتمل جرأته مثلي، ولذلك أرى هذا النور القمري الباهت، والأقرب إلى لون الموت حين يزور أحدهم في ليالي الشتاء المملة، وأرى نفسي وحيدا وشريكا لهذا الفضاء المعقد من وجه، والبسيط من وجهه الآخر، وكل ما هنالك أن أمرا يعيد الذاكرة إلى الوراء، ذلك منظر كوكب الأرض وهو يتأرجح أمامي، كلعبة مهترئة بيد طفل يتيم ينظر للآخرين بحقد دفين، ماكنت قط عاكفاً على ذاتي، لكنني أحاول هنا أن أنظر للأمور من الخارج .. و يالها من صورة كئيبة تلك العادة التي تجعلني أتناول الأمور تناولا مسرفا في الجد، لكنني أعود وأقول أنه ولابد أن أجرد العالم من كل زينة مثالية خلعتها عليه إفراطاً في الرغبة أن أرى الأمور كما ينبغي أن تكون عليه، لقد كنت شديد الطمع، خلقت من العالم صورة مثالية لأضاعف يقيني بحقائق اكتشفت من فترة وجيزة أنها مجرد أوهام، لكن العالم هو كما هو، ولن يلبس ثوب الفضيلة ليرضيني!.

يا للهول؛ هذا صراخكم وبكائكم وفجوركم وحتى رائحة أنفاسكم المتخمة بمقولات متناقضة وكل هذا الصراخ يتلوه صراخ مضاد، ويكفي أن

تشاهدوا منظر الترددات الصاعدة إلى السماء نتيجة تلك الفكرة الخبيثة و التي تسمونها في ألطف الأحوال (عولمة) إنها حالة هستيرية تجعلكم تصرخون في وقت واحد . وتسعرون في وقت واحد، وإن كان لا يشكل فارقا بسيطا حين كنتم تصرخون في أوقات متفرقة بأماكن مختلفة؛ غير أن تلك الحالة كانت سببا للمسرحية الهزلية العابثة، ذات المشاهد التي لا تنتهي ضمن نسق معيشتكم، وبدلا من أن يكون نظامكم الجديد قرية عالمية، تبدو لي الصورة من هنا وكأنه جنونا عالميا ونهبا عالميا، لقد صار الحديث هذه الأيام حافلاً بقضايا السياسة وقضايا الجنس! وهما أمران يشكلان نزعة الانسان في الوجود، إذ من جانب تشكل السلطة والمكسب، ومن جانب آخر تشكل اللذة والامتداد، لكنني خلصت من هذا أن الإنسان يمكن أن يجد السعادة القصوى في تمام تدميره لذاته!.

ليس غريبا أن أتحداكم مع حلول المساء، وربما استمر هذا الأمر إلى أمد غير معلوم .فهناك دافع حقيقي وراء هذا كله، إنها رغبة جادة وصارمة في العزلة؛ إنه يجب أن يكون نسقاً ضمنياً متوارثاً..إن العزلة خير علاج لمن يشكو مرارة التحليق الدائم بعيدا عن السرب!.

عند هذه اللحظة يجب أن أعترف أنني بحاجة إلى اللجوء لكلمة "يكفي"، صحيح يكفي أيها السادة، قلبي يخونه التحمل، إنني أعلن استسلامي، أيها السادة كفى! كم من التنازلات علي أن أقدمها؟ قلت لكم أنني لم أعد قادرا على مواصلة التحدي، بل لم أكن أعني التحدي، كنت فقط أحاول أن أقنعكم بفكرة بسيطة، بفكرة تؤمن بها البشرية منذ الأزل، انشقت لأجلها الحناجر، وسفكت من أجلها الدماء، وتقاسم الليل والظلام على إثرها صرخات

المعذبين في كل سجن، المغيبين في أكفان العزلة، الهاربين إلى قمم التاريخ التي لطالما ورث أصحابها السياط و التنكيل والعناء.

إنها الحرية .

حق الإنسان بأن يكون حرا، بأن يعيش دون أن يتسلط أحد ما على تفكيره وتعبيره وكرامته، كنت أود أن أقنعكم أن الشعوب تكون أكثر قوة وأكثر أمانا حين تكون حرة وكريمة، لكنني بعد هذا كله، لم أعد قادرا على إقناعكم، ويبدو – أيها السادة – أن عقولكم أضيق بكثير من أن تفهم معنى الحرية، هنا تكمن منطقة الفراغ الكبير التي تقع بيني وبينكم، كيف يمكن إقناع الأعمى بروعة الشفق، كيف يمكن أن يشعر الأصم بنشوة الموسيقى، كلا أيها السادة إن هذا مستحيل، لن تفهموا معنى الحرية مهما ترددت على مسامعكم وأبصاركم، لن تفهموا مدى أهمية هذه الكلمة في حياة الإنسان، هناك عضو ما مفقود في أدمغتكم، جزء لا يجعل تواصلكم مع هذا العصر أمرا ممكنا، ويجعل الاستجابة والتأثير مستحيلا وشاقاً، لقد فقدت الثقة فيكم تماما، ويصعب التحرك بخط موازي بجواركم، أنتم تقعون في طرفي نقيض فإما أن تكونوا مستبدين وطغاة أو أذلة منكسرين، الوجهان اللذان يمكن أن ترى فيهما الطاغية، وجه التحجر والغطرسة ثم وجه آخر بعد السقوط وجه الذلة والخيبة!.

هناك أيها السادة إمكانية متاحة، صدقوني من الممكن جدا أن يكون هناك من هو أكثر سلطة ومن هو أقل سلطة دون أن يحمل أحدهم عصا غليظة بشعة بينما يقف الآخر مكبل اليدين ومكمم الفاه.

إنني لم أعد أحلم بأمور كبيرة، لقد تقلص طموحي للدرجة التي أشك بعدها أنني أملك أمرا يمكن أن يكون مطمعا للطموح، هناك شيئا يجول في

خاطري ليس إلا روح لا زالت تنبض بين ثنايا النفس لا أظن أنها ستمارس اليأس طالما أن هناك شعوبا حرة على وجه الأرض، أيها السادة، وددت لو امتلكت ذراعين طويلة جدا وجسم أكثر ضخامة، وددت ذلك لسبب جوهري للغاية، سبب عاطفي جدا، ذلك أنني أرغب أن أعانق كل الأحرار في العالم، وأنا أعلم جيدا أنهم كثر للغاية، كثر للدرجة التي أعتقد معها بأنني فعلاً بحاجة كبيرة لامتلاك ذراعين بطول دولة كبيرة، على الرغم أنه من المهم جدا أن نعرف أن نقيضهم من الوضيعين والخونة والمنافقين أكثر بكثير بكثير!!.

مـــدينـــة المللـــيون نـــــائم

"سعد الفاضل" رجل أربعيني طويل القامة وله بطن صغيرة بارزة إلى الأمام، وغير متناسقة مع باقي جسده، عينيه ذابلتين كعيني الكوالا، حالفه الحظ هذه المرة بعد مرات ومرات من محاولاته الفاشلة للخروج من مدينة المليون نائم! على الرغم أنه دخلها بمحض إرادته، وباختياره وقناعتة الذاتية، حيث أن هذه المدينة والتي بلغ عدد سكانها حتى الآن زهاء المليون شخص، لا تجبر أحدا على دخلوها أو الانضمام لسكانها، صحيح أنها مفتوحة للجميع وعلى حد سواء وهي تقدم للناس الخيارات والعروض المغرية والجميلة للانضمام إليها؛ لكنها لا تفرض على أي أحد بمبادئها وتتبنى حرية الدخول مع صعوبة بالغة عند الخروج منها .

عاد "سعد الفاضل" لمدينته البسيطة وفضل العيش بالطريقة التي يطلقون عليها أهل مدينة المليون نائم ((الطريقة التقليدية الواعية)).

عاد وهو مقتنع كل القناعة بأن الإنسان خلق ليحيا وليمارس حياته وهو بكامل وعيه، ويتخذ قراراته بناء على تصوره الشخصي دون إملاء، ودون توجيه، ودون ضغوط الإعلام أو المجتمع أو التماهي مع سياسة القطيع .

وحين سأله أهل مدينته الحالية وهم يجلسون حول مائدة صغيرة في بيت أحدهم ويحتسون القهوة؛ عن أسباب هروبه من مدينة "المليون نائم" على الرغم أنه كان أحد المبشرين بقيامها، والمهتمين للعيش ضمن مجتمعها.

تنفس الصعداء وأجاب بعد ان رفع نظراته للأعلى وأخذته لحظة شرود عابرة ثم انطلق في **الإجابة للرجال من حوله قائلا:**

الحياة في مدينة المليون نائم! تعني أن تعيش ضمن سرب من القطيع والمدينة برمتها تتكون من مجموعات من القطعان تتقاطع أحيانا مع بعضها

البعض وتتباعد في أحيان أخرى، وذلك بحسب ما تفرضه وتمليه كل مجموعة على أفرادها .. إن أناسها يتحركون كالمنومين مغناطيسيا أو كمن يمشي وهو نائم ويتصرف تصرفات اليقظان؟! البرنامج اليومي متنوع ولكنه أشبه بتنوع النشاطات المختلفة لمن يرزحون وراء قضبان السجون! فالخيارات قد تكون متعددة ومتنوعة لكنها في نهاية الأمر محددة وغير مقبول الحياد عنها، كما أن هناك تكرار للعمليات اليومية والمصيبة أنه تكرار غير محسوس لا يشعر به الناس هناك كما هو بالضبط حين لا يشعر من يمشي وهو نائم بالتصرفات والأعمال التي يقوم بها .

حد الاستهلاك اليومي فظيع جدا ويتعدى حدود النهم والشراسة الشائعة بين حتى أشد الحيوانات وحشية وسبعية والتي لا تستهلك مقدار ما يستهلكه الفرد هناك في أسبوع! لأنه وكما ذكرت سابقا أن أهل هذه المدينة غير واعين تماما بتصرفاتهم وسلوكياتهم إنهم أشبه بالنيام المستيقظين!!.

على سبيل المثال الفرد في القطيع عليه أن يمر خلال الأسبوع بعدد من المحطات محددة له سلفا وهو لا يعي ولا يعرف أنها محددة له سلفا! من هذه المحطات (السوبر ماركت – محطة البنزين – المرور بمطاعم الوجبات السريعة – التبضع من محلات الماركات المخفضة وهميا – متابعة البرامج التلفزيونية – تشجيع أهوج لفريق كرة قدم – التجول بالسيارة بلا هدف – التنزه والترفيه المستمر).

كانوا يقفون طوابير ينتظر كل واحد منهم دوره في الوصول للمحاسب في إحدى المحلات الكبيرة وما أن ينتهون من التبضع إذا بهم ينطلقون نحو مطعم يقدم وجباته بطريقة جديدة مع ذات اللحوم الفاسدة والمخزنة بطريقة تأنفها

النفوس وبعد أن يأكلون حد التخمة يفكرون أين سيقضون بقية الليل إن كان في مقهى يضم المئات من المتسكعين الذين لا طائل من البحث وراء الغاية والهدف من حياتهم على هذا النحو، أو يقضونه في تجمعات همجية في أماكن يسمونها الاستراحات تضيف على حياتهم مزيدا من الاستراحة طويلة الأمد!!

وقد كانت مفاجئتي عند أول جلسة جلستها مع أحد أعيان تلك المدينة والقائمين على بعض المشاريع فيها حيث دار بيني وبينه نقاشاً ليس بالطويل وقد كنت منبهراً بفئة الشباب التي تنتشر في المدينة وأجسامهم الفتية وملابسهم الجميلة **فقلت له:**

- من هؤلاء الشباب ذو الأجسام التي جاءت في أحسن تقويم، كم لديكم من أمثال هؤلاء الشباب الأقوياء؟.
- لدينا الالاف منهم.
- فماذا يصنعون، ما أجمل ما تكون رؤيتهم في المصانع والمعامل وما أروع الأجهزة والأدوات في أيديهم الفتية ..
- ما أكثر ما أتمنى هذا أنا أيضا، غير أنهم لا يزالون في رعاية أسرهم وهم من محبي المقاهي والرياضة ..
- فماذا يعملون إذا.. ؟!.
- إنهم يتابعون الشاشات ويلعبون ويرقصون ويأكلون ويشربون ثم يهضمون ما يأكلون .
- يا للخير العظيم للمدينة بأمثال هؤلاء!.
- نعم هذه الحالة باتت أمرا مستحسناً في مثل هذا العصر .. إنهم شباب مسالمون جداً وهم يحاولون أن يكونوا أكثر تحضراً من أسلافهم .

- ولكن ألا تتفق معي أن الاختلاف بينهم وبين أسلافهم يكاد يصل لمرحلة التطرف؟!.
- هذا غير مهم أيها العزيز .. طالما أن كل شيء متوفر وفي متناول اليد؛ قد تعتقد أنهم سذج ولكنهم أكثر ذكاء مما تصور ..
- أخبرني إذن عن وجه الذكاء في كون أنهم اتكاليين إلى هذا الحد؟!.
- وماذا ينبغي عليهم أن يقوموا به إذا كانت الظروف مهيأة لهم أن يعيشوا بطريقة منعمة، إنهم يستثمرون فرصتهم وهم من الذكاء بحيث أنهم لا يفوتون ما هو في متناول اليد.
- اها لعل ما تقوله فيه شيء من وجهة النظر ..

توقف سعد عن الحديث لكنه تابع مبدياً رغبته في إنهاء مثل هذا الموضوع:

قلت لكم إنهم أشبه بمن يسيرون في الطرقات وهم نيام .. لا طائل من الحديث عنهم..!.

التنـــــــورة

غابت الشمس في أحضان الأفق البعيد، وراحت السحب تسير في كتلها المنتفخة تتراقص مخترقة النسيج الأحمر الذي ينتشر في السماء، وعلت أصوات الطيور العائدة في طيرانها العشوائي إلى أعشاشها الصغيرة، بينما خففت أشجار السرو فارعة الطول من شدة ميلانها تجاه الضوء الناعم للسماء، أما المروج الخضراء راحت حشائشها القصيرة ترقص كعادتها مودعة يومها الذي يمضي كعادته في هدوء ودون أدنى تغيير يذكر .. وكانت مزارع القز تنتشر من طرفها البعيد حتى طرفها القريب وقد امتلأت بتلك الاكياس المنتفخة والتي تحتضن فيها دود القز الأحمر وهو يقبع في تلك الاكياس في سباته الطويل ..

وكان على المزارعين أن يجهزوا للأيام القادمة حين يخرج فيها دود القز وينثر خيوطه الحريرية التي من أجلها عانوا أياما طويلة من أجل الحصاد، وكان بين هؤلاء المزارعين "نور الدين" الرجل العجوز الذي مضى زمنا طويلا حتى أصبحت نظراته كما هي عليه الان هادئة ومليئة بالحكمة وتعلو محياه ما يشبه الابتسامة غير أنها لم تكن في واقع الحال ابتسامة حقيقية! إنما حركة لا إرادية يصنعها فكة لمقاومة الألم الشديد الذي أصاب أحد أضراسه الخلفية في وقت قديم، وقد زال الألم وزال السن أيضا، لكن تلك الحركة اللاإرادية بقيت لتعطي وجهه تلك المسحة من الابتسامة الباردة.

وها قد أقبل موسم الحصاد و جمع "نور الدين" محصوله وفرز كافة الخيوط الحريرية التي كان عليه تسليمها لمندوب المصنع الذي تتعهده مقاطعة (دلكو) الصينية بمحصولها الشهري من خيوط الحرير، وبينما كان يجلس على كرسيه الهزاز في شرفته المقابلة للمزرعة أخذ حفنة من المحصول بين أصابعه وراح يلعب بها وهو مغمض العينين سامحا بموجه من ذكريات الماضي تتخلل

مسامات روحه ولم يكد الوقت يمضي حتى قطع عليه حبل الذكريات السائق الهندي "دالي" بلحيته المشعثة وهيئته المنهكة ينزل من سيارته بملف الأوراق ويبدأ بعبارته الشهيرة:

- هل ديدانكم على ما يرام اليوم ؟.

لم يجبه "نور الدين"، كان يلملم بضاعته ويقذف بها في صندوق السيارة بينما كان "دالي" يسجل عدد الأكياس، ثم مد إليه مبلغا من المال وطلب توقيعه على الأوراق تبسم "نور" وهو يمضي على الأوراق وقال: ((نحن نوقع على أننا أكثر الناس كفاحا والأقل دخلا من وراء هذا العمل)).

- إلى اللقاء أيها العجوز (قالها "دالي" وهو يركب السيارة وينطلق).

وصلت تلك الرزم من الأكياس المنتفخة الكبيرة والتي يصل عددها إلى ما يقارب الأربعة والأربعون كيسا من خيوط الحرير الطبيعية إلى المصنع، كان في استقبال "دالي" مجموعة من العمال الذين صار من الواضح عليهم الضجر والملل من هذا العمل الذي يقومون به، حملوا الأكياس وبدأوا يفرغون محتوياتها ويفرزون الخيوط الأكثر تماساكا وجودة من الحرير الطبيعي.

كان المصنع ملكا لرجل أعمال فنزولي يدعى "ريتاجو" وهو رجل قصير القامة منتفخ كبالون ضخم قليل الكلام قليل الاحتكاك بالموظفين لا يتقبل الخسارة إطلاقا إلى درجة أنه على استعداد أن يسرح أي موظف يتسبب ولو في خسارة تافهة بسيطة لا تذكر ..

فرزت خيوط الحرير وأدخلت إلى معامل النسج بدورها قامت الآلات وفق برمجتها الالكترونية بنسج الخيوط وتحولت إلى أقمشة ملساء لها لون فضي يجذب الأنظار .

ثم حولت هذه الأقمشة إلى قسم الصباغة، وهناك فرزت إلى عدد من الألوان والتي كان يحددها مصمم شهير يدعى "ستيفن ماري" بلغاري الجنسية ويتلقى راتبا ضخما فقط لتحديد درجات الألوان لهذه السلعة الثمينة وفق ما جرت عليه الموضة العالمية من كل عام .

بدورها تسير هذه البضاعة وفق خط الانتاج منها ما يباع بالجملة لشركات التسويق التي تبيعها لمحلات الأقمشة وجزء آخر يتم بيعه لمصانع الملابس.

هناك في مصنع (gmj) وقع نظر مصمم الأزياء فاحش الثراء "سرمادو بيريز" على اللون الفيروزي وصفق بأصابعه وهو يردد ((بالضبط هذا اللون الذي أتحدث عنه)) وما أن قال عبارته تلك حتى إنهال فريق عمل مكون من سبعة أشخاص مقسمين إلى أربعة نساء وثلاثة رجال يعكفون لصنع نموذج لتنورة قصيرة من نفس اللون وقماش الحرير الناعم ..

في المقهى الإيطالي (مربينو) جلس الروائي الشهير "جيردانو سرامادو" وهو يحاول اجتذاب فكرة ما للكتابة على أوراقه المبعثرة على الطاولة أمامه، إذ جذب بصره في تلك اللحظة امرأة ثلاثينية ذات قوام ممشوق ملفت للنظر كانت تحاسب النادل وتستعد لمغادرة المقهى وما أن استدارت ومضت ذاهبه تسمرت عينا الكاتب في تلك الأرداف المتناغمة مع التنورة الحريرية القصيرة ذات اللون الفيروزي اللامع وسمع في هذه الأثناء همسا بين شخصين في الطاولة المجاورة حينها لمعت في ذهنه كتابة قصة عن التنورة القصيرة ذات اللون الفيروزي .

روحـــي تطـــــير

مثقل أنا بالجراح، قادم من أرض بعيدة، مطرود برغبة ذاتية، ومطارد من نفسي والآخرين، سافرت مثل أي طائر حر، تنقلت بين مدن كثيرة، تركت ذكرياتي وآثارا أخرى في كل مكان، ليس صحيحا أنني دوما أنجح في خداع نفسي، إذ ما أثقلها من نظرة، حين أشاهد نفسي في المرآة، وأكتشف أني على غير حقيقتي، مطلوب مني دائما أن أتكيف، أن أصير كما يصير الآخرون، أن لا تصبح تصرفاتي مختلفة عمن حولي، حتى لو كان من حولي يمارسون أشياء منفرة وغبية .. ماذا يعني أن تتكيف؟؟ هل يعني ذلك أن تصبح بلا هوية، أن تتصرف تصرفات تمقتها نفسك؟.

كنت أحلم أن يكون لي قلب كبير، وأفق ممتد، يستوعب هذا الجنون الذي يواجهني كل يوم وليلة، كنت أحلم أن تقتات أنفاسي تلك الصباحات السعيدة التي كنت أنعم بها أيام طفولتي ومراهقتي، أيام ما كانت اللذة والمتعة ترافق أغلب التفاصيل، حتى البسيطة منها والتافهة!.

أما اليوم، مع هذا الرتم الغريب، والعصر الذي لا يتحلى بالقليل من الذوق، حتى يستأذنك في الانتقال من مرحلة لأخرى، أو يعطيك الفرصة لتتأمل أو تفهم ماذا يدور حولك، إنما يقفز بك وكأنك لاعب زانة، أشعر حيال ذلك، أنه لم يعد من المتاح إلا أن تشاهد بصمت المذهول، فقط، تجول ببصرك للأحداث دون حتى أن تعمل عقلك، وربما لن تضطر لممارسة الاستماع أيضا، لأن كل شيء بات وليد المفاجأة، ومختزل في صورة، أو مظهر، أو شكل، وماعدا ذلك، فهو خارج سياق العصر، ولا قيمة له في أغلب المواقف والظروف!.

أتذكر، كنت فتى صغيرا، يمارس طقوس غريبة، أجمع ألواح خشبية صغيرة من محل نجارة مجاور، وأصعد بها مع فرحة واضحة إلى غرفة منسية في سطح

المنزل، ثم أبدأ بالرسم عليها، كنت أفعل ذلك مستعينا بمزاج عالي، حيث يكون ((المسجل)) على مقربة مني، وأنا أستمع لروائع محمد عبدالوهاب التي تتغنى بها أم كلثوم!.

في تلك الغرفة كنت أعيش عزلتي، واستقلاليتي، قرأت فيها كل روايات أجاثا كريستي والمنفلوطي وبعض الكتب التي كانت تقع عليها يدي من مكتبة البيت، كل هذا كان يحدث وأنا لم أتجاوز الثانية عشرة!.

وبعد مضي السنين، اليوم، أتساءل، من سرقني؟ من جردني من طقوسي؟ من قتل الكائن الموهوب في داخلي؟ من انتزع ذاتي؟ وأدخل يده في عقلي وبدأ يعبث؟ أحيانا أنظر لنفسي، وأرى في عيني سؤالا يكاد أن ينطق: هل أنت "خالد"؟ الذي يفترض أن يكون كما هو عليه الآن؟ أم أنه من الطبيعي أن يكون "خالد"؟ هذا ثلاثة أشخاص، مئة شخص، مليون؟؟ من صنعك؟ من شكلك؟ من أثقل عاتقك بهذه الأفكار والموروثات والمبادئ؟.

لماذا تنتمي لهذا التيار، ولا تنتمي لذاك؟ لماذا يجب عليك أن تلتزم بتيار معين؟ لماذا لا تصنع لنفسك تيار، وتجعل الناس هم من يتبعونك؟ لماذا تعتبر السعودية وطنك؟ لماذا لا تكون الكويت مثلا، أو سويسرا، أو اسرائيل؟؟! لماذا صارت المجتمعات؟ ووضعت الحدود؟ ورسمت الخرائط؟ ووجد الملوك؟ لماذا تعددت اللغات؟ وقدست الأفكار والأوطان والتقاليد أكثر من الإنسان نفسه؟ لماذا وجد الوعاظ؟ والمعلمون؟ والعلماء؟ والفلاسفة؟ هل وجدوا ليغيروا أفكارنا؟ وكيف كانت أفكارنا قبل أن يغيروها؟ وهل كانت بحاجة للتغيير بالفعل؟

لماذا يقول "فوكو" أن الإنسان مات بمجرد أن صار له مجتمع ولغة وعادات؟.

هذا العجز يصعب تفسيره، إنه حالة من فقدان الذات ربما، كيف تتسرب الذات من الإنسان بهذه الطريقة؟! دون مقدمات ودون مفاجئة، بطريقة باهتة وبطيئة، بطيئة للدرجة التي تصبح وكأنها عادة لا يمكن التخلي عنها .. هكذا أجد نفسي حزين بلا حزن، وكئيب بلا كآبة، غريب بلا غربة ..

يا سيدي ما الذي صنعته بك السنون أو بالأحرى ما الذي صنعته بنفسك، لقد هاجرت بعيداً عن نفسك .. لقد أضنيتها بالآمال وقسوت عليها بالطموحات .. يا سيدي ما الذي جرى لك؟ ألا تعود عن غيك؟! ألا تلملم أوراقك ؟ ذكرياتك .. خيباتك .. هلوساتك؟.

ماذا عليك أن تفقد بعد؟! لقد فقد الذكريات .. وفقدت السكينة .. وفقدت الحب و كذبات أخرى لم يعد بمقدورك أن تصدقها وأن تثير في نفسك السعادة كما في الماضي السحيق ..

لقد فقدت ذلك الشعور بالحياة ليس لأنك معذب أو عاشق، ولا لأنك بائس أو مقهور، ولا لشيء سوى أنك واهم تمارس هذا القدر من التوهم حتى اختلطت عليك الأوهام ولم تعد تعرف أيها أجدر بأن يتحول إلى حقيقة واهمة بائسة!.

تطل على الحياة باكتراث غبي ومندفع ويائس في الوقت نفسه!!.

قل لي الآن .. ماذا قتل بداخلك ؟ ومن الذي قتله .. ولماذا سمحت بقتله؟.

هل فات الأوان ؟.

المهم الآن،قولوا لي، كيف أقبض على روحي، أراها تحلق بمسافة معقولة عني، تقفز في أرجاء الغرفة هنا وهناك، لا أعلم لماذا تهرب مني بهذه الطريقة، حين تستمع لموسيقى (ياني)؟؟.

الحـــــــياة

أنظر هناك! العجوز، عيناه تغرق في الذكريات، يثير الشفقة، كيف لا أخاف وسأرتدي في يوم رداءه؟ وأتقلد نفس نظرته؟.

إبني الصغير بجواري، يقفز كأرنب أليف، مليء بالروح، مليء بالفرح، مليء بالأمل، كم هو مخيف ذلك الشعور الذي يقتحمني حين أفكر بمستقبله؟.

زوجتي الرائعة، لا تمر ساعة حتى تهيئ لنا أمر ما، تبدو كالشمس تشع حنانا واهتماما ودفأ، لا أستطيع تخيل حياتي دونها!.

سيارتي الجميلة، أستمتع بقيادتها، أخشى عليها نتوء الأرض، أحيانا، أتخيل قائد متهور، ينهي قصتي معها!.

طلابي الأبرياء، العقول الناشئة المتعطشة للمعرفة، أتمنى لو رويت عقولهم بالفعل، من المخيف لو اكتشفت، في يوما ما عكس ذلك .

مدينتي، غارقة في السحر، تصحو على الغبار، وتنام على همس العشاق، أعترف أني أجلها، فكرة الانتقال عنها تثير مخاوفي!.

أمي العظيمة، ترفع يديها اليابستين، تدعو لي بأدعية كثيرة، هذه الدعوات إذا انقطعت ستنقطع معها طمأنينتي.

الحياة، كم هي مخيفة ؟!.

هـــــاجـــس

انبثقت من خيط رفيع جداً من أعصاب الدماغ راحت تدوي في رأسه وأخذت تتضخم يوماً بعد يوم .. صارت فكرة كبيرة متكاملة واتخذت أسلوباً ملحاً بشكل مريع .. عند وصول الأمر إلى هذا الحد قرر أن يتجاهلها وأن يعتبرها مجرد أوهام وخزعبلات ذهانية استمر ممارساً لردة الفعل هذه فترة طويلة لكن إصرار الفكرة لم يهدأ ولم يتوقف .. قابل أناس كثير ومر على مختصين نفسيين .. شرح لهم معاناته أعجبه جداً قول أحدهم "لكل منا عدداً من الأفكار التي نهرب منها" أقنعه بذلك لكنه لم يجد في ذلك حلاً لمشكلته ..

بعد مرور ثلاث سنوات ونصف على هذا النحو من التشتت الذهني وجد أنه ما من مناص من أن ينفذ هذه الفكرة مهما كانت العواقب لقد شعر أنها نداء لا بد أن يستجيب له، أنها رسالة حياة مسؤول عن تنفيذها ..

انطلق إلى أكبر مركز تسوق بالمدينة وبدأ يتجول في هدوء راح يراقب هنا وهناك حتى لفت انتباهه سيدة ثلاثينية تتوشح رداءً خفيفاً مثيراً، جعلها نصب عينيه وراح يتتبعها من محل إلى آخر حتى انتهى اللحاق بها إلى سيارتها ..هناك .. ناداها بصوت وكأنه خارج من بطنه!.

"يا آنسة لو سمحت"؟.

التفتت إليه ولمحت في عينيه أمراً مريباً ظهرت عليها ملامح الخوف مباشرة وسارعت ركوب السيارة لكنه استطاع بجرأة ومباغتة أن يمنعها ثم بادرها بعشرات الضربات على وجهها حتى سقطت على الأرض مغشياً عليها، حينها ركض بعيداً عن موقع الحدث!.

في اليوم التالي وفي سوق آخر لمح سيدة ترتدي عباءة رمادية اللون تظهر بإثارة ملامح جسدها .. هذه المرة كانت تتسوق لفترة طويلة جداً وكان هو

يزداد مع الوقت تصميماً وحماساً لتنفيذ فكرته ومرة أخرى شوهدت السيدة ملقاة على الأرض مهشمة الوجه تئن بصوت أنثوي حزين.

بعد مرور أسبوعين كان كل يوم يقوم بنفس الفكرة مع ضحية أو ضحيتين حتى بلغ عدد ضحاياه أكثر من 20 امرأة.

في المرة التي قرر أن تكون الأخيرة كانت السيدة التي يتبعها ممتلئة وقصيرة وبعد أن كرر عليها النداء وما أن التفتت إليه حتى وجه لها الضربة الأولى كانت صرختها مدوية سمع في داخله صوت المرأة الذي كان يتردد في ذهنه ومع الضربة الثانية بدأ يميز الصوت بداخله .. كان صوتها الأشحب .. نعم هي .. "تكلم أيها الأبله الصغير".. "لا أسمح لك باللعب مع أولادي أتفهم .. أنت غير مرغوب بك بيننا" .. كان يضرب هذه المرة بشكل وحشي دون توقف وصوت المرأة بداخله يزداد .. يراها تتزين أمام المرآة وتقدم لأطفالها ألعابا وحلوى .. ثم تشيح بوجهها عنه "غبي .. متطفل" تجمع الناس هذه المرة حوله لم يتمكن من الفرار ألقوا القبض عليه واستدعوا الشرطة كان يتنفس بقوة وضحيته تشخر بالدماء من أنفها .. ظل يردد وهو يجر أنفاسه بينما يتم إدخاله سيارة الشرطة ((سوف أنال منك .. سوف أنال منك))!..

سحـــــــــنون

ليس هناك من تلمع عينيه وتنفرج أساريره مثلما كانت بادية عليه، كان سعيداً جداً ليس لكل الامتيازات التي حظي بها بعد أن رشح مديراً لإدارة شؤون الموظفين في ديوان الخدمات الاجتماعية، ولكن تلك البهجة العارمة التي تلألأت على وجهه لأنه أصبح مسؤولاً مهماً وصار على استعداد أن يمشي بطريقة مختلفة تتناسب ووضعه الجديد كمدير شؤون الموظفين .. لقد أصبحت قائداً وتحت إمرتي أتباع وأنا أستطيع الآن أوجه الأوامر.. نعم ولن يختلف تعامل الآخرين معي فحسب بل سيطلب الناس ودي وسيسعون لكسب رضاي .. أنا أجلس الآن في مقدمة الصفوف .. أصبحت من الطبقة المميزة المهمة .. بجواري رؤساء آخرون ومديرو عموم ومسؤولون كبار وصارت الاتصالات تنهال علي ومطالب الناس بين يدي ينتظرون مني الموافقة والتوقيع ولذلك وجدت أنني ملزم بتغيير توقيعي .. يجب أن يكون أكثر صرامة وفخامة .. توقيع يوحي بالاعتماد الكامل والرهبة والقوة!.

كان يجلس في الصف الأول، في حفل تكريم للمتقاعدين، حوله عدد من مديري الإدارات و يتوسطهم المدير، كان يجلس بجوار المدير العام، وكان يشعر بعظمة متناهية، لم يمضي على تعيينه مديراً أكثر من شهر لكنه شعر أنه خلق لهذه المهمة، كان مرتكزاً على الكرسي منتصب الرقبة نافخ الصدر، يتلذذ بكل لحظة يشعر فيها أن أنظار الناس تتوجه للصف الأول، للنخبة والذي صار واحداً منهم، قلب صفحات من الأوراق التي أمامه بطريقة لا مبالية ثم تحدث مع من حوله بطريقة ارستقراطية لكنه لمح أن المدير العام أشار إليه فما كان منه إلا أن أبدى اهتماماً شديداً لإشارته قام من كرسيه ثم اقترب من كرسي المدير العام وجثى على ركبتيه وأخذ يستمع لتوجيهات المدير العام .. كان

يستطيع أن يتحول بطريقة سريعة ومحترفة بأن يتقمص شخصية المدير اللامع ودور المرؤوس المطيع، تلقى من رئيسه عدداً من التوجيهات وانصرف مسرعاً لتنفيذها، كان يشير لمرؤوسيه بالمبادرة بالعمل على تنفيذ توجيهات المدير العام .. عاد بمشية متسارعة وهمس في أذني المدير العام وبعدها مباشرة نهض المدير العام من مكانه وراح الجميع يسيرون خلفه بينما مدير شؤون الموظفين يمشي أمامه كحاجب أو حارس شخصي يتلفت يمنة ويسره ويبعد كل ما يعيق حركة المرور أمامه .. اتجه المدير العام إلى دورات المياه وفي تلك اللحظة انحنى مرافقه المبتهج وفتح له الباب وظل ينتظره حتى خرج بعد قرابة خمس دقائق .. ابتسم المدير العام له ابتسامه تنم عن الرضا والاعتزاز ..

بعد مرور ستة أشهر على هذا الحدث، كانت رزم من الأوراق موضوعة على مكتب المدير العام، كانت تتعلق بتجديد التكليفات لمديري الإدارات ورؤساء الأقسام وكانت المعايير التي يبني المدير العام موافقته على تجديد التكليف من عدمه تقوم على ذاكرته وذاكرة مساعده حول أبرز المواقف التي حصلت خلال العام وجرى بينهما الحديث التالي ..

المدير العام: "فيصل عمران" ؟ لا أتذكره ..

المساعد: كان قد عمل لك تقديم مميز في أمسية يوم الموظف ..

المدير العام: أها .. تذكرته .. يجدد تكليفه ..

المساعد: "عادل مصطفى" .. مدير إدارة الصيانة، هل تتذكر؟ أكثر من تكلم عن معوقات العمل في الاجتماع الأخير .. مارأيك؟.

المدير العام: لا يجدد تكليفه ..

المساعد: "كريم" أبو جبل .. مدير إدارة المشاريع.

المدير العام: هههه أكثر من تعجبني نكاته .. رجل ظريف .. يجدد تكليفه.

المساعد: "سحنون الهلاف" .. مدير شؤون الموظفين؟.

المدير العام: لا أتذكره .. هل تم تعيينه قريبا؟.

المساعد: له ستة أشهر من بداية تكليفه .. في الحفل الختامي كان يمشي بجوارك، وفتح لك باب دورة المياه ..

المدير العام: نعم تذكرته .. يجدد تكليفه ..

أرق

مضى يومان ولم تستطع "لينا" النوم، حاولت بشتى الوسائل أن تخلد للنوم دون جدوى، كانت تفكر بأشياء كثيرة ومشتتة فهي بعد أن انضمت لأحد الأحزاب السياسية الحديثة صارت أكثر تهيجاً وتوتراً، عرضت عليها إحدى الصديقات بعد أن عرفت معاناتها مع النوم حبوبا منومة، أخذتها منها ولم تفكر حتى بتناولها، لقد كانت موقنة أنه متى ماجاء وقت النوم فسوف تنام بسلام دون أن تكون بحاجة للعقاقير، لكنها لم تتوقع أن يتأخر هذا الوقت حتى يتجاوز 48 ساعة، لقد صار وجهها شاحباً وذابلاً ولم تعد تقوى على الحركة، كانت تحملق بعينين حمراوين في سقف الغرفة وبيدها كرة مطاطية صغيرة تضغطها بكفها اليسرى لقد كانت متوترة ولم تعرف سبب هذا التوتر بالتحديد .. في تلك اللحظة جالت بخاطرها فكرة .. أن تخرج .. رغم أن الوقت متأخر وليس لها وجهة محددة مع ذلك قررت الخروج، وبالفعل هاتفت سائقها الهندي وماهي إلا لحظات وكانت في مقعدها الخلفي من سيارتها الفاخرة الأمريكية الصنع، طلبت من السائق أن يأخذها في جولة على الطريق الدائري .. راحت تتأمل المدينة وهي تنساب في أحضان الليل، كانت تحب هذه المدينة بشكل كبير وكانت تسحرها بتفاصيلها التي تجمع بين الحداثة والقدم .. لم تمض أكثر من نصف ساعة حتى تراءى لها في إحدى الشوارع رجلا يمشي على أربع!! فوراً استوقفت السائق وأمرته بالرجوع للخلف حتى تتأكد مما شاهدته قبل قليل .. كان رجلاً في الخمسينات من العمر يمشي على أطرافه الأربعة بينما يجلس على ظهره قط أسود له ذيل طويل جدا!! لم تصدق ما تراه .. راحت تفرك عينيها .. سألت السائق "ماهذا ؟؟" كان هو الآخر فاغرا فاه من فرط الدهشة .. كانت المسافة بين السيارة وبين هذا الرجل الغريب كافية للفرار في

حال أقدم على الاقتراب .. لكنه ظل مراوحاً مكانه على الرصيف الذي يمشي عليه، وبعد لحظات ابتسم ابتسامة مخيفة وبرزت ثلاثة أسنان ذهبية في فمه الواسع بينما لمعت عيني القط الأسود مع انعكاس الضوء وسمعت الرجل يتكلم بلغة لا تفهمها ولم تستطع أن تستوعب سوى عدد قليل من الكلمات "فتاة تعجرفة .. آخر الليل .. برجوازية .. " وبينما هي تحاول التركيز على صوتم الرجل المتقطع تفاجأت بحضور رجل آخر يشبه الأول إلى حد كبير ويمشي نفس مشيته على أطرافه الأربعة لكن على ظهره غراب أسود له منقار طويل جدا .. حدث ما يشبه الشجار والصراخ بين الرجلين بينما راح الغراب والقط في عراك عنيف انتهى بموت الغراب .. حينها حمل الرجل الأخير الغراب وهو يصرخ في وجه الرجل الأول "لن أكون جسدا فحسب .. لن أكون بلا معنى .. " حاولت أن تفهم ما يجري لكنها ظلت مندهشة لهذا المشهد العجيب ورأت أنه يجب عليها التحرك فورا قبل أن يحدث ما لا يحمد عقباه .. طلبت من السائق التحرك، كررت عليه النداء لكن السائق لم يجب، صاحت عليه بصوت عال "هيا انطلق".. لكنه كان يغط في سبات عميق، هزت جسده وحاولت ايقاظه .. في تلك اللحظة خاطبها الرجل وهو ينزل من الرصيف ويتجه نحوها وبصوت أكثر وضوحا قال لها "لن يصحو يا سيدتي .. ستكونين في ضيافتي الليلة" .. وارتسمت ابتسامة واسعة على وجهه ولمعت مجددا أسنانه الذهبية الثلاثة .. حينها صرخت بأعلى صوتها وأمسكت برأس السائق وضربته في المقود .. "اصحى أيها المغفل .. اصحى ألا تسمعني" .. "نعم سيدتي .. نعم .. " وبدا وكأن السائق يصحو من غيبوبة وعلى الفور قبل أن يقترب الرجل أكثر انطلقت السيارة بسرعة مخلفة ورائها سحابة من الغبار ..

كانت خيوط الشمس تتسلل عبر نافذة السيارة جعلت معها "لينا" تشعر بحرارتها على خدها حتى استيقظت وهي منهكة خائفة .. نظرت حواليها لم تجد السائق ولكنها وجدت نفسها في سيارتها بجوار المنزل.

الشـــــاعـــــــر

قرر "حسام" أن يتبعها أينما ذهبت وأن يسخر وقته وحياته لأجل هذا الحب الذي تملك عقله وقلبه وإن كان يعلم في قرارة نفسه أن أحاديث الحب لطالما تمر أياما وشهورا وربما سنيناً لتذهب دون عودة أو تعود لتكون قصة مثيرة للتندر والضحك ..

شأنه شأن العاشقين المكبلين وبعد أن رآها في الجامعة؛ صار يسير هائماً بالطرقات ينتظر متى تدخل هذا المكان ومتى تخرج من ذلك المحل .. مقيد بمصير هزلي عبثي يحاول أن يكون قرباناً يقدم على مذبح العشق يفكر كشاعر من الجيل الرومانسي لكنه متناقض في كثير من الأحيان فهو لا يتورع أن تمتد عينيه إلى فتاة هنا أو هناك وهو ماض في اللحاق بمحبوبته ..

لم تكن تعيره أي اهتمام وقد حذرته أكثر من مرة بأنه بمجرد الاقتراب منها سوف تتهمه بالتحرش وقد كان راضياً كل الرضا عن عنادها الأنثوي هذا .. بل كان هذا أكثر ما يعجبه فيها وكان يخشى أكثر ما يخشى أن يأتي اليوم الذي تلين فيه وتبادله نفس القدر من الحب .. كان بالأحرى يلهو لكن بطريقة بائسة لا يفهمها غير الشعراء أولئك الشعراء الذين لم يجدوا لهم قراء ولا مستمعين، لكنهم يظلون مع الوقت مصرين على أنهم شعراء موهوبين!.

ذات مساء نظر إليها خلسة وهي تحتسي القهوة في أحد مقاهي الجامعة، كانت نسمات رياح الربيع الناعمة تنثر شعرها على وجهها وهي غارقة في التفكير .. تلذذ بذلك المنظر وهي وحيدة وساهمة، ترتدي قميصاً ذهبياً.. شفتيها النافرتين، ويديها الناعمتين تمسكان فنجان القهوة وأنفاسها الرقيقة تكاد تظهر له وهو يراقب كقط أعور ينتظر على عتبة إحدى المطاعم!!.

يقول في نفسه أن الحب قيد، أن لذة العشق في الصد، في الإعراض الكلي والوحشي .. لمحته وهو يتتبعها كشيخ عاجز .. نظرت إليه فترة طويلة .. وهو من دهشته لم يعد يعرف أين يهرب من نظراتها .. نادته بصوت مليء بالعطف ..

- أنت ..تعال!.

كان يظن أنه يتوهم .. توقع أن الفترة الطويلة التي قضاها في متابعتها سببت له شيء من الهلوسات .. لكنه مرة أخرى سمعها دون شك ..

- تعال .. أنت ..

تقدم إليها في خطوات مبعثرة ..جلس أمامها على الطاولة وظلت تنظر إليه بتفحص سألته عن اسمه وعن عمله وعن أشياء تافهة أخرى .. وانتهى الحديث بعد ساعة ونصف تقريباً تحدثوا في أشياء كثيرة كان في بداية الجلسة متوتراً مشوشاً لا يكاد يصدق أنه يجلس مع محبوبته .. ومع مرور الوقت راح يتأمل قسمات وجهها .. تلك الندوب التي لم تكن ظاهرة له أثناء تتبعه لها .. أسنانها ليست نظيفة بل إنها في الحقيقة قذرة.. بدت امرأة متبلدة و تضحك بصوت مرتفع جدا .. في نهاية الجلسة وبعد أن صرحت له باستحسانها له وطلبت منه رقم هاتفه، شعر حينها أنها لا تطاق وكان يود التخلص منها بأسرع طريقة ممكنة .. استأذن منها معتذراً بأن رسالة طارئة وصلته تلزمه الانصراف فوراً وغادر المكان ولم يلتقي بها بعد ذلك أبداً ..